غراس
للإنتاج الفكري

ملخص كتاب

فصول في التفكير الموضوعي

منطلقات ومواقف

للدكتور عبد الكريم بكار

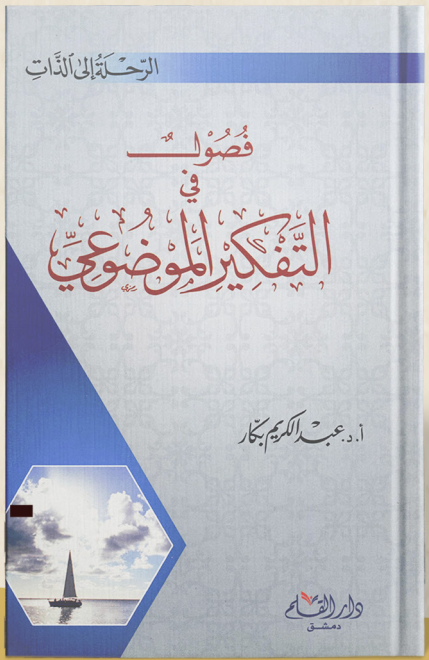

إعداد:
د.عامر خطاب

ملخص كتاب

فصول في التفكير الموضوعي

منطلقات ومواقف

للأستاذ الدكتور عبد الكريم بكار

إعداد

الدكتور عامر خطاب

غـراس

للإنتـاج الفـكـرى

مركز غراس للإنتاج الفكري

هو مؤسسة غير ربحية، تُعنى بتحرير القضايا الفكرية والثقافية والاجتماعية المعاصرة. تأسست في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٣ الموافق جمادى الأولى ١٤٤٥ للهجرة.

يسعى المركز للمساهمة في معالجة القضايا المجتمعية ونشر ثقافة محصنة ضد الاختراقات الفكرية والأخلاقية في عالم تزاحمت فيه الأفكار، وتصادمت فيه التساؤلات، وغدت الحيرة عنواناً لكثير من الناس.

GHIRASCENTER

info@ghirascenter.org

+90 531 437 25 99

مُقَدِّمَة

إن أرقى أنواع الوعي هو الوعي بالذات، وإن أعظم أنواع الجهل هو الجهل بها. والوعي بالذات ليس انغلاقاً عليها، ولا تعبداً في محرابها؛ ولكنه الإدراك الحسن لحدودها وشروط وجودها والظروف الأكثر ملاءمة للحفاظ عليها وترقية درجة عطائها.

وحتى نتمكن من وعي المرحلة التي نخيم فيها فلا بد من معرفة المراحل التي أناخ فيها الآخرون، وهذا دافعٌ آخر يدفعنا إلى عدم الانغلاق مع إدراكنا أهمية البحث عن الذات.

هذا من جانب؛ ومن جانب آخر فإن عدم الوعي بالذات يوقع الأمة في محذورين خطيرين:

الأول: هو إضافة عناصر ترفضها ثقافة الأمة لاصطدامها مع بعض منظوماتها العقدية أو الشعورية أو الرمزية أو التاريخية مما يؤدي إلى صراعٍ بين ثقافة الأمة وهذا الوافد الجديد الذي لا يحمل تأشيرة دخول إليها.

الثاني: هو الجمود والعزلة عن تيارات الثقافة العالمية، وإن طبيعة الأهداف التي يسعى إليها المسلمون تجعل عزلتهم أيضاً غير ممكنة؛ إذ إننا حملة الرسالة الخاتمة التي كلّفنا **الله** بإيصالها إلى البشر جميعاً.

ما التفكير؟

عرفه بعض التربويين بأنه: كل نشاطٍ عقليٍ هادفٍ مرنٍ يتصرف بشكل منظّم في محاولة لحل المشكلات، وتفسير الظواهر المختلفة والتنبؤ بها والحكم عليها؛ باستخدام منهج معين يتناولها بالملاحظة الدقيقة والتحليل؛ وقد يخضعها للتجريب في محاولةٍ للوصول إلى قوانين ونظريات.

الفصل الأول

لمَاذَا كَانَ التَّفْكِيرُ ضَرُورَةً حَيَوية؟

١ الآيات التي تحث على تقليب النظر في ملكوت السموات والأرض

٢ التفكير دليل على الوجود

٣ مظاهر اليأس في العالم الإسلامي

٤ التفكير من أجل اكتشاف السنن

٥ تجسيد القيم في أشكال وأساليب عملية

١- التفكّر في ملكوت السماوات والأرض:

الكتاب العزيز جاء حافلاً بالآيات التي تحث المسلمين على تقليب النظر في ملكوت السماوات والأرض ليستدلوا بذلك على وجود الخالق المبدع، ولعلنا نستعرض بعض تلك الآيات لننعم بقبس من نورها:

أ- في مجال التوحيد والدلالة على خالق هذا الكون يقول جَلَّ وَعَلَا:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠ - ١٩١].

ب- حث العقل الإنساني على التفكر والتدبر، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النَّحل: ٤٤].

ج- إثارة النظر والفكر حتى يستخلص العبر الهادية للناس في مسيرة الحياة فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعرَاف: ١٧٦].

د- ضرورة ملاحظة الجذور حتى لا يزيغ البصر في تأمل أطوار الأشياء المختلفة، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العَنكَبُوت: ٢٠].

هـ- القيام لله مثنى وفرادى بعيدين عن التأثر بصخب الجماهير، وانفعالاتهم حتى يسلم النظر من المؤثرات الخارجية، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبإ: ٤٦]

٢ - التفكير دليل على الوجود:

يقول ديكارت: (أنا أفكر إذن أنا موجود) وكأنه يريد أن الذين عطلوا ملكات التفكير لديهم ليسوا أحياء.

٣ - مظاهر اليأس في العالم الإسلامي، ومنها:

أ- دول العالم الإسلامي التي تجاوزت الخمسين مصنفة جميعاً في دول العالم الثالث، وكثير منها يعيش تحت مستوى الفقر.

ب- على المستوى الثقافي الشكلي الكمي فإن نسبة الأمية بين المسلمين البالغين تتراوح نسبتها بين ٥٠٪ و ٨٠٪ بمتوسط يقرب من ٥٨ ٪.

ج- الانحباس النهضوي:

هذا الانحباس سببه الرئيس هو عدم القدرة على إدراك طبيعة المشكلة.

د- أما على الصعيد النفسي فتلاحظ الأدواء التالية: فقد الأمن والطمأنينة، زوال الإيمان بكثير من الثوابت الخوف من العالم والانطواء، التخلي عن المواقف الإيجابية تجاه الواقع، ازدياد المواقف المبنية على ردود الأفعال البَرَم بكل ما هو قائم ونقده دون أي تمييز، ضيق الأفق والحيرة واليأس من انسداد السبل تدهور المناخ الفكري وانعدام الحوار.

هـ- انعدام فاعلية المبادئ والمثل العليا.

٤- التفكير من أجل اكتشاف السنن:

كان من جملة تسخير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الكون لهذا الإنسان أن بث فيه سنناً تتصف بالاطراد والشمول والثبات، وهذه السنن مبثوثة في الكون والأنفس والمجتمعات والوقوف عليها لا يتهيأ لنا ونحن متكئون على الأرائك؛ وإنما يأتي ثمرة استقراء لجزئيات كثيرة بغية توزيعها على النواميس العليا التي تحكمها، ثم تأتي مرحلة الاستفادة منها، وذلك بعدم مصادمتها والأمل بحصول أحداث تخالفها.

٥ - تجسيد القيم في أشكال وأساليب عملية:

أ- الشورى:

الشورى مبدأ من أهم المبادىء الإسلامية، وقد طبقه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجالات كثيرة، كما طبقه الخلفاء الراشدون كذلك من بعده؛ وحين كان المجتمع ضيق الرقعة فإنه كان بالإمكان الاعتماد على الشورى العفوية المعتمدة على معرفة الخليفة بأهل الحل والعقد؛ وحين اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وتعقدت مصالح الناس، وتعددت جوانب الحياة كان لا بد من تطوير الصيغ الشورية بما يتناسب مع الأوضاع الجديدة.

ب- الوحدة:

التوجه إلى الأطر الوحدوية التي تتناسب مع الظروف المعقدة والمعطيات الجغرافية الجديدة بما يحقق شكلا من أشكال التوحد، ويسمح في الوقت نفسه بمرونة الحركة للشعوب الإسلامية وفق خصوصياتها والمراحل الحضارية التي تمر بها.

ج- إغاثة الملهوف:

ظل هذا الخلق حياً فاعلاً في حياة المسلمين على المستوى الفردي إلى يوم الناس هذا.

لماذا نفكر؟

نعني بالتفكير ذلك الترديد للعقل في مشكلة ما ترديداً مركزاً كذاك الذي يمارسه العلماء والقادة في شأنٍ من الشؤون المستعصية. ونستطيع أن نقول: إنه لا تفكير بدون مشكلات، وإذا ما قدر للعالم أن يقبض على حلول جميع مشكلاته فإن التفكير الجاد سينتهي عندئذ ولكن هذا لن يكون أبداً في هذه الحياة.

وهنا تبرز مكانة المفكرين في الأمم؛ حيث إن أبرز صفات المفكر أنه يمتلك رؤية نقدية شاملة ينقل من خلالها تناقضات مجتمعه والصعوبات التي يعاني منها إلى حس الناس وأعصابهم. فإذا ما حرمت أمة هذا النمط من الرجال، أو وجدت صعوبات عطلت وظائفهم التبصيرية فإن تأزماتها مرشحة للبقاء والتجذر والتوسع!

كيف نحسن التفكير؟

القراءة هي البداية:

لحكمة بالغة كان أول ما نزل من القرآن الكريم:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العَلَق : ١]

ماذا نقرأ؟

التدقيق في نوعية ما نقرأ جزءٌ من حرصنا على الحياة نفسها!

ولا بد من القراءة الناقدة فلا نسمح للجديد من الأفكار أن يتسرب إلى أذهاننا دون محاولة لاختبار صدقه وفحص دلالته.

ما بين القراءة والتفكير:

إن القراءة لا تصنع مفكراً عظيماً، وليست هي البديل عن الفكر؛ وكما يقول **جون لوك**: إن القراءة لا تمد العقل إلا بمواد المعرفة، لكن التفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكاً لنا.

ومن هنا فإن بعض المفكرين كان يتجه إلى تغليب التفكير على القراءة، وبعضهم يتجه إلى تغليب القراءة؛ ولكن من المتفق عليه أنه لا بد من

تخصيص وقت للقراءة ووقت للتفكير، ويمكن أن تغلب القراءة في البداية حتى نهيئ لعقولنا المادة التي ستقوم بتشكليها؛ إذ لا يمكن لطاحون أن تصنع شيئاً دون وجود شيء تطحنه

مباشرة الحل لمشكلة ما:

تاريخ التقدم البشري لا يعدو أن يكون حركة جدلية بين الطرح للمشكلات والحل لها، ومن خلال اندماج الإنسان مع الطروح والحلول يترقى في حركة حلزونية صاعدة، وإن حل أية مشكلة سيعني مواجهة مشكلة جديدة، وهذا ليس نوعاً من الارتكاس، ولا نوعاً من الدوران في حلقة مفرغة.

بداية المواجهة:

إن وجود المشكلات أمر بدهي ما دام أكبر خصائص الحياة الدنيا أنها حياة ابتلاء واختبار وبداية المواجهة هي الشعور بالمشكلة، وكثيراً ما يتوقف الوعي بمشكلة ما على الوعي بحياة آخرين خلت حياتهم منها؛ فإن الذين يعيشون في وطن ضرب الاستبداد فيه أطنابه من مئات السنين لا يستطيعون تقدير حجم معاناتهم إلا من خلال الاحتكاك بمجتمعات سادت فيها الشورى والحرية.

وفي إطار ممارسة التفكير لحل مشكلة ما يمكن أن نذكر الوصايا والإجراءات التالية:

أ- الحماسة والاندفاع في مواصلة العمل أمر ضروري لإنجاز شيء ذي قيمة.

ب- امتلاك القناعة بجدوى المشكلة التي نحلها أمر جوهري لاستمرار العمل.

ج- قد يكون حل المشكلة التي نريد حلها متوقفاً على حل مشكلة أخرى؛ مما يجعل عملنا فيها يشبه عمل من يريد بناء طابق خامس ولم يبن الطابق الأول. وإدراك ذلك في الأمور الإنسانية أكثر تعقيداً منه في أمور الطبيعة والمشكلات العلمية البحتة.

د- قد تكون هنالك آراء سابقة حول المشكلة، وهذه الآراء قد تكون خاطئة فتشكل عاملاً من عوامل الإعاقة أمامنا، وربما تسقط بعض الإمكانات المتاحة للحل. وتاريخ التقدم العلمي نوع من الجهاد ضد التفسيرات الخاطئة.

هـ- من الحيوي للباحث أن يتحلى بفضيلة المرونة الذهنية؛ لأن كثرة التفكير في مسألة ما لا تعني دائماً الوصول إلى حل مرض؛ لأن لكل جيل من الأجيال سقفاً معرفياً لا يستطيع أن يتجاوزه؛ فالناس يفكرون في الطيران من قرون بعيدة، ربما من أول ما شاهدوا الطائر يخترق كل الحواجز؛ ولكن تحقيق ذلك لم يتم إلا بعد تكامل علوم وتجارب مع مواد بعينها هيأت ولادة الطائرة.

و- هنالك خطر ينبغي أن يتجنبه الباحث، وهو عدم استغراق كل الاحتمالات باتجاه أو طريق ما أي: الانتقال من بضعة احتمالات في

اتجاه معين إلى احتمالات أخرى في اتجاه آخر، إلى احتمالات جديدة تصل باتجاه ثالث. إن هذا الأسلوب ضار بعملية الإنتاج الفكري. ومما يعالج هذا أن يقوم الباحث برسم خطة منظمة للإنتاج، وأن يكون واضحاً في استبعاد اتجاه ما في سبيل الآخر

ز- إصدار الحكم:

كل ما قلناه من قبل عبارة عن مقدمات وخطوات من أجل الوصول إلى حكم ناضج أو رأي سديد، ولا يشترط حتى يكون الحل ناجحاً أن يتوصل إلى حل دائماً، إذ قد يكون من الحلول الناجحة الوقوف على جذور المشكلة أو إعادة صياغتها.

ومهما يكن من أمر فإن الأناة في إصدار الحكم والصياغة الدقيقة له أمر في غاية الأهمية وليس أعون على ذلك من صياغة الحل في فترات زمنية متعددة.

وليس من العلم في شيء أن نولد نتائج قطعية من مقدمات ظنية، أو نسوقها سياق القطعيات وهي مستقاة من ظنون وتخمينات؛

التفكير العِلْمِيُّ

عرف بعض الباحثين التفكير العلمي تعريفاً إجرائياً شاملاً حين قال: هو كل نشاط عقلي هادف مرن يتصرف بشكل منظم في محاولة لحل المشكلات ودراسة وتفسير الظواهر المختلفة، والتنبؤ بها والحكم عليها باستخدام منهج معين يتناولها بالملاحظة الدقيقة والتحليل، وقد يخضعها للتجريب في محاولة للتوصل إلى قوانين ونظريات.

ويمكن أن نوجز أهم صفات التفكير العلمي فيما يلي:

١- التفكير العلمي نشاط مقصود وليس نشاطاً تلقائياً.

٢- وهو نشاط منظم؛ وليس نشاطاً مفككاً؛ وحين يمتلك المرء خطوطاً واضحة يعالج من خلالها الظواهر المختلفة، يقال إنه امتلك منهجاً علمياً، ويتبع المنهج العلمي الخطوات التالية:

أ- ملاحظة منظّمة للظواهر الطبيعية التي يراد بحثها.

ب- مرحلة التجريب

ج- الاستعانة بتلك القوانين الجزئية المتعددة التي تم الوصول إليها في المرحلة التجريبية.

د- الاستنباط العقلي.

٣- يتصف التفكير العلمي بالدقة والضبط.

٤- **البحث عن الأسباب:** إن معرفة الأسباب تمثل مفتاح الحل.

٥- التراكم: أتاح اختراع الإنسان للكتابة نقل الخبرات البشرية عبر أمداء الزمان والمكان.

٦- **الشمول:** إن العلم لا يكون علماً حتى يكون عالمياً، وما لم يكن كذلك فهو ظنون أو أوهام!

٧- **اليقين:** واليقين المعتبر هو اليقين الموضوعي الذي يرتكز على أدلة منطقية مقنعة لأي عقل

إن عدوَّيْ العلم هما الظن والهوى.

٨- **اليقين الذاتي:** وهي حالة تعتري الشخص يشعر من خلالها أن كارثة حاقت ببني فلان على سبيل المثال، وهذا اليقين لا قيمة له في البحث العلمي إذا لم يكن موضوعياً منطقياً.

التفكيرُ المَوضُوعِيُّ

بإمكاننا أن نعرف التفكير الموضوعي بأنه: مجموعة الأساليب والخطوات والأدوات التي تمكننا من الوقوف على الحقيقة، والتعامل معها على ما هي عليه بعيداً عن الذاتية والمؤثرات الخارجية. ولا يغيب عن البال أن الذين يدّعون التحلي بالتفكير الموضوعي كثيرون؛ بل قلّما نجد من يعترف أنه غير موضوعي؛ وهذا على مستوى الأفراد والجماعات والدول والشعوب.

الفصل الثاني

القرآن الكريم
يبني الخَلفِيَّة التاريخية لِلمَوضُوعِيةِ

الأمثلة التي توضح الخلفيّة التاريخية
التي سردها القرآن الكريم لبناء الموضوعية

١ معرفة حدود الذات

٢ التثبت

٣ نبذ الآبائية

٤ إنصاف الناس وعدم هضم حقوقهم

٥ النظرة التفصيلية

٦ نقد الذات

٧ المرونة الذهنية

نحن هنا نسوق جملةً من الأمثلة التي توضح الخلفية التاريخية التي سردها القرآن الكريم، وهو يقوم ببناء التفكير الموضوعي لدى المسلم. ونحن لا نعمد هنا إلى الاستقصاء، وإنما إلى مجرد التمثيل.

١- معرفة حدود الذات:

إذ الجهل في هذا وخيم العواقب؛ حيث يؤدي في بعض الأحيان إلى الكبر والغرور والتهور، وقد يؤدي في أحيان أخرى إلى نكران الذات وعدم الاستفادة من إمكاناتها المقدورة لها.

أخبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الملائكة الكرام أنه جاعل في الأرض خليفة، واستفهم بعض الملائكة على سبيل التعجب والاستعلام: كيف يستخلف الله بني آدم، وفيهم من يفسد في الأرض. وحين أدركوا أنهم قد تجاوزوا حدودهم بذلك قالوا: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ [البَقَرَة: ٣٢].

أي ننزهك يا الله عن النقص، ونحن لا نعلم إلا ما علمتنا إياه.

٢- التثبت:

التثبت من حقيقة ما يصادفه المرء في حياته قبل أن يتخذ موقفاً تجاهه؛ وقد ركز القرآن الكريم على هذا الجانب حتى لا يقع المسلم في سلسلة من الأخطاء نتيجة الفهم الخاطئ، أو القاصر؛ وقد عرض القرآن الكريم هذا

الموضوع بأساليب شتى حتى يصبح حقيقة راسخة؛ فهؤلاء فتية الكهف الذين ربط الله على قلوبهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ [الكهف: ١٥].

وإذا كان الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يريد من عباده أن يتبينوا فإنه يساعدهم على ذلك؛ فهو يرسل رسله بالآيات البينة التي تقنع المطّلع عليها، وتجعله على بيّنة من أمره؛ وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٤٥﴾ [المؤمنون: ٤٥]، إنه امتحان للحجة، وتعليم للناس أن يميزوا بين حجة وأخرى.

٣- نبذ الآبائية:

كثيراً ما يكون تراث الآباء سبباً في تعطيل العقل والاستفادة من خير طارف يخالف ما كان عليه السابقون، ومن ثم فإن الإنسان مكلف بامتلاك الميزان الذي يمكّنه من تقويم تركة أسلافه، وإنزالها في المنزلة اللائقة بها، وقد ضرب لنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ المثل المنير في موالاة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والحق الذي أتاه والانسلاخ عما ساد في مجتمعه من ضلال؛ وفي هذا يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة: ١١٤].

٤- إنصاف الناس وعدم هضم حقوقهم:

عندما ينشب الخلاف، وتثور العداوات يصبح كثير من الناس عاجزاً عن الإبصار بعينين؛ فهو لا يرى إلا المثالب والمساوئ، وحين تهب رياح المودة فإن كثيرين أيضاً لا يبصرون إلا بعين الرضاء ومن هنا جاءت دعوة شعيب لقومه واضحةً صريحةً للخلاص من هذه النقيصة حين نصح قومه:

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هُود: ٨٥].

٥- النظرة التفصيلية:

من أكبر الأخطاء التي تنافي الموضوعية إصدار الأحكام العامة في القضايا الإنسانية حيث يتشابك عدد من العوامل في إيجاد الظاهرة الواحدة، وحيث يصبح الربط بين ظاهرةٍ ما وبين ظواهر أخرى معقداً غاية التعقيد؛ مما يستدعي الأناة في إصدار الأحكام، وتفصيل ما يحتاج إلى تفصيل. وفي هذا الصدد يقول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التَّحرِيم : ١٠ - ١١].

فقد وجد الكفر في بيت نبيَّين من الأنبياء الكرام، وخرج الإيمان من بيت أعدى أعداء الله؛ وفي ذلك تبصرةٌ لأولي الألباب حتى لا يحكموا بالإيمان أو الكفر لأهل بلدة بصورة عامة.

٦- نقد الذات:

وهو إقرار ببشرية بني آدم التي لا تستطيع أن تخرج من دوائر الجهل والقصور والخطأ - إلا من عصم الله - وفي هذا السياق يحدثنا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن أبينا آدم وأمنا حواء حين أكلا من الشجرة، وبدت لهما سوآتهما، وعرفا الوقوع في المخالفة؛ فإنهما أسرعا إلى الإنابة قائلين:

﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأَعرَاف : ٢٣].

إن نقد الذات سيظل مقياساً دقيقاً للوعي بالذات والوعي بالماضي والحاضر، والأمة التي تحرم منه تحرم من خير كثير!

٧- المرونة الذهنية:

توجد المرونة الذهنية للإنسان مساحاتٍ للحركة يوازن فيها بين الخير والشر وأنواع الخير وأنواع الشر؛ فيحاول من خلالها النفاذ إلى تحقيق خير الخيرين، ودفع شر الشرين، ومن النماذج القرآنية التي تؤسس هذه السمة الحميدة:

ذهب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمناجاة ربه، وترك أخاه هارون خليفة في قومه، وقد قام السامري بما قام به من صياغة عجل لبني إسرائيل حتى يعبدوه من دون الله، وقام هارون بنصحهم وموعظتهم، لكنهم لم يقبلوا منه، وحين عاد موسى قال:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤].

فقد خاف هارون أن تتفرق كلمة بني إسرائيل إن تركهم ولحق بموسى، فينقسموا إلى قسمين قسم يقيم على عبادة العجل، وقسم يلحق به. هذا الفهم من هارون عليه السلام كان نتيجة موازنة بين اللحاق بأخيه والتبرؤ مما فعل بنو إسرائيل، وبين خوف الفرقة بين بني إسرائيل وتشتت شملهم، فآثر الإقامة معهم، والعجل يُعبد على مرأى منه على الفرقة والشتات.

هذا البناء للخلفية التاريخية كان بمثابة التمهيد للعقل المسلم حتى يشعر أنه حين يؤمر بسلوك دروب الموضوعية والواقعية والإنصاف، فإنما يؤمر بالسير في طريق خطا فيها من قبل الأنبياء والمرسلون ومن معهم من خيار بني البشر، ليشكل ذلك جزءاً من النظام الشعوري وجزءاً من المحكّ المرجعي للمسلم فيما بعد.

الفصل الثالث

بناء المجالِ النَّظَرِي لِلمُوضُوعِيَّةِ

١ البعد عن الظن

٢ التجرد من الأهواء

٣ الانسجام الذاتي

٤ المسؤولية

٥ مراعاة التكاليف الشرعية للطاقات البشرية

٦ البعد عن الذاتية

٧ احترام الاختصاص

٨ الدقة

٩ الإنصاف

١٠ التعامل مع الحقيقة

١- البعد عن الظن:

يمكن بلورة هذه القضية في النقاط التالية:

أ- طالب القرآن الكريم أهل الكتاب وكفار قريش بالكفّ عن الجدل فيما لا علم لهم به، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ٦٥ - ٦٦].

فقد زعم اليهود أن إبراهيم كان يهودياً، وزعم النصارى أنه كان نصرانياً مع أنه كان قبل موسى وعيسى بمئات السنين؛ فكيف يكون تابعاً لملّةٍ جاءت بعده؟

ب- قرر القرآن الكريم في مواضع عدّة عدم صلاحية الظنون في بناء المعلومات، وشنّع أولئك الذين يركنون إليها؛ حيث إن الظن متأرجح بين اليقين والشك؛ وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الموضوع بتعابير مختلفة؛ فهو تارةً ينهى المؤمنين عن اتباع الظن، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجُرَات: ١٢]..

وتارة يقرر لهم أن الظن غير ذي قيمة في استكشاف الحقائق كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يُونُس: ٣٦].

وتارة ينعى على الكفار اعتمادهم على الظن في مواضع لا ينفع فيها إلا العلم اليقيني، كما في نعيه على الذين زعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النِّسَاء: ١٥٧].

ج- حثّ القرآن الكريم المسلمين على التحلي بفضيلة التثبت قبل الإقدام على أي أمر، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحُجُرَات: ٦].

د- أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المؤمنين أن يستعملوا عقولهم في المجالات التي يمكنها أن تتوصل فيها إلى الحقيقة؛ فالغيبيات التي لم يروها، ولم يأتهم بها خبر صادق لن يكون الكلام فيها أكثر من اللغو والعبث. وفي هذا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزُّخرُف: ١٩].

ولا ريب أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة، ولم يروهم.

هـ- يعلمنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الموضوعية حين يشنع على أولئك الذين يحدثون الناس بكل ما سمعوه دون نظر شخصي في ذلك المسموع؛ ومن ثم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع. كما ذم أيضاً أولئك الذين يروون أخباراً لا سند لها، ولا

يعرف من هو قائلها؛ وذلك توسلاً بها إلى مآرب شخصية، حين قال: بئس مطية الرجل زعموا.

٢- التجرد من الأهواء:

نجد ملامح عرض القرآن الكريم لهذه القضية:

أ- إن المعرضين عن الإسلام ما أعرضوا عن علم، ولا عن قناعات لكن اتباعاً للهوى.

ب- وجه القرآن الكريم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناهياً إياه عن الركون إلى بعض ما يقوله أهل الأهواء.

ج- أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى المؤمنين بإقامة موازين العدل، وإن خالف ذلك ميولهم.

د- إن الولاء ينبغي أن يكون باستمرار للمنهج المنزل مهما كان مخالفاً للهوى.

٣- الانسجام الذاتي:

يتجلى الانسجام في اتساق أقوال المرء مع معتقداته، وفي أفعاله مع أقواله وهذا الانسجام من سمات الإنسانية الفاضلة.

وقد أشاد الإسلام بهذه الفضيلة واستخدم أقسى عبارات الإنكار والتوبيخ لأولئك الذين يخرجون عليها ويمكن أن نجتلي معالم ذلك في النقاط التالية:

أ- زعم اليهود أنهم أولياء الله وأحباؤه والمصطفون من خلقه؛ وهذا يرتّب عليهم الاستبشار بلقاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لكن واقع الحال يشهد بخلاف ذلك، فهم أجبن الناس عند اللقاء، وأشد الناس جشعاً، وأكلاً لأموال الناس بالباطل.

ب- يمثّل النفاق ظاهرة مرضية خالصة حيث يقوم أمره كله على التنافر بين الأقوال والعقائد وبين الأقوال والأعمال؛ ومن ثم فإن آيات كثيرة فضحت هذه الظاهرة، بل إن هناك سورة تحمل اسمهم، وجعل القرآن الكريم جزاء النفاق أشد العذاب.

ج- حين بدرت بوادر من بعض المسلمين تنافي الانسجام المتوقع توفره في حياتهم لفت نظرهم القرآن الكريم إلى ذلك بعبارة قاسية؛ حتى لا يتكرر الخطأ.

د- ركزت تعاليم الإسلام على فضيلة الصدق، وقد حثت آيات كريمة كثيرة وأحاديث نبوية مستفيضة على ضرورة اقتران الإيمان بالعمل الصالح؛ حتى يتحقق الانسجام المطلوب، كما وردت نصوص كثيرة تحذر من الكذب وارتكاب المعاصي.

٤- المسؤولية:

يمكن أن نبلور هذا الجانب في النقاط التالية:

أ- يولد المرء بريئاً من الإثم والخطيئة وليست هذه البراءة مقررة على المستوى الفردي، بل إن بني آدم جميعاً براء مما فعله أبوهم آدم حين

أكل من الشجرة؛ فالقرآن الكريم يقرر لنا أن ذلك الخطأ كان طارئاً، ومن هنا فإن الإنسان ليس بحاجة إلى فداء ولا إلى مخلص؛ فهو بريء الذمة إلى أن يشغلها بكسبه الذاتي!

ب- كما يولد المرء بريئاً من تبعات أعمال آبائه وأجداده، والأصل في المسؤولية أن تكون فردية: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطُّور: ٢١].

ج- لا معنى للمسؤولية دون ربطها بالجزاء، لأن هذا ينبه المسلم إذا ما لقي أزمة أو انتكاسة في الدنيا إلى مراجعة الأسباب التي سببتها، وذلك خير من إلقاء أسباب واقعة على القدر أو على الأعداء أو سوء الحظ.

٥- مراعاة التكاليف الشرعية للطاقات البشرية:

يمكن أن نشخّص ذلك في المفردتين التاليتين:

أ- ليس في الإسلام ما يصعب اعتقاده أو القيام به؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، وتقديراً للظروف المختلفة التي يمرّ بها بنو الإنسان كان في الشريعة مبدأ (رفع الحرج) حيث قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحَج: ٧٨].

ب- عدّت الشريعة الغراء الغلو في الدين والإفراط في التنسك تشويهاً لجمال الدين وإخلالاً بتوازنه وإعناتاً للخلق، وذاك لا يختلف كثيراً عن التفلّت من الدّين وأحكامه السمحة.

٦- البعد عن الذاتية:

ويمكننا أن نجلو هنا النقاط التالية:

أ- الخطوة الأولى في البعد عن الذاتية هي وضوح المنهج على مستوى القيم والمبادى والأنظمة والإجراءات فيما لا يخضع لاختلاف الزمان والمكان.

ب- بذل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهوداً مكثفة؛ حتى يستقر في حس المسلم وفهمه أن المنهج فوق كل اعتبار آخر، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه ليس مستثنى من ذلك؛ كما رسم الحدود الدقيقة الفاصلة بين ما ينسجم من ماضي العرب مع الرسالة الجديدة، وما يتنافر معها، وكان ذلك في الحقيقة تعميقاً لعموم الرسالة وعالميتها.

فعلى الصعيد الأول نجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسخ في أذهان الناس أنه من عبيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كلفه الله بحمل الرسالة الخاتمة للعالمين، أما على الصعيد الثاني فقد أثنى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بعض القيم التي كانت في الجاهلية ما دامت تنسجم مع دعوته؛ وذلك إحقاقاً للحق قبل كل شيء.

٧- احترام الاختصاص:

يمكن أن تلاحظ في هذه القضية ما يلي:

أ- الحث على استقاء المعلومات من مصادرها الموثوقة، وتحكيم أهل الاختصاص عند التنازع.

ب- أن يفتي العالم في حدود علمه، وألا يدعي علم ما لم يعلم؛ لأن في ذلك تضليلاً للناس، وصرفاً عن الحقيقة التي ينبغي أن يعلموها.

٨- الدقة:

إن تصور أية قضية لا يتم إلا وفق توصيف دقيق لها، وإذا تصورناها على ما هي عليه كنا موضوعيين، وأمكننا أن ننتقل على هدى إلى اتخاذ الموقف الموضوعي منها. ومن هنا غرست تعاليم الإسلام كلها في نفس المسلم كل ما يجعله دقيقاً في كل حركة في حياته إذا ما هو نفذ إلى ما وراء الظاهر؛ فالعبادات التي هي في الأصل عن الخضوع للخالق جَلَّ وَعَلَا أحيطت بإجراءات صارمة في كثير من الأحيان؛ حتى تمسي الدقة جبلّة في المسلم لا ينفك عنها!

٩- الإنصاف:

وهو نوع من الانسجام مع طبائع البشر وأحوالهم، ولعلنا نلمس سمات الإنصاف في المفردات التالية:

أ- إن من الخطأ البيّن إصدار حكم واحد على قبيلة أو أهل ملّة أو بلدة؛ لأن ذلك التعميم سوف ينطوي على ظلم واضح.

ب- الاعتراف للآخرين بما يملكون من خصائص تميّزهم عن غيرهم، وهذا الاعتراف لا يولد إلا من رؤية شاملة للحياة، ذلك؛ لأن النقد ليس بيان المثالب والعيوب، لكنه أيضاً الكشف عن مساحات الخير والجمال.

ج- يرشد الإسلام المسلم إلى أن ينظر إلى الناس بالمنظار عينه الذي يحب أن ينظروا إليه به؛ لأن المشاعر الإنسانية واحدة وحاجات البشر النفسية والاجتماعية واحدة، أو تكاد؛ ومن ثم فإن الإنصاف أن نسلك المسالك التي تؤمن تلك الحاجات للجميع.

١٠- التعامل مع الحقيقة:

ومما يوضح طريقة التعامل مع الحقيقة:

أ- عدم الوقوف عند الصور والأسماء والأوصاف غير المؤثرة في النتائج؛ وذلك لأن عدم تجاوز ذلك سيعني خروجاً عن الموضوعية المطلوبة، كما سيعني السطحية والشكلية المضللة.

ب- تجاوز الظاهر إلى ما وراءه، وتصحيح النظر إلى الظاهر نفسه حيث يكون في بعض الأحيان خادعاً، أو يكون بحاجةٍ إلى مزيد تأمل؛ حتى لا نخرج بانطباعات خاطئة.

ج- إعطاء الحقيقة ما يتناسب مع حجمها من الاهتمام والعناية ضربٌ من ضروب الموضوعية المعاشة على الصعيد العملي.

د- ضرورة مواجهة الحقائق بشجاعة وثبات؛ فذاك جزء من الموضوعية التي لا يليق بالمسلم الانحراف عنها.

هـ- الموازنة الدقيقة بين الخيارات المتاحة فيما يدفع شر الشرين، ويحقق خير الخيرين.

و- ترتيب الأولويات في القضايا التي تحتاج إلى معالجة.

الفصل الرابع

في تجلّيات المَوْضُوعَيةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

أهم المعالم التي تمثّلت فيها الموضوعية عند المسلمين

١ مناهج البحث

٢ تقويم الأشخاص

٣ الأفكار والأحداث

٤ التعامل مع الحقيقة

١- الموضوعية ومناهج البحث العلمي

يمكن تعريف المنهج بأنه: فنُّ التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين.

وتتولد المناهج نتيجة عوامل عدة منها المشكلات التي تواجه الأمة، والنظرة الكونية لها، ومنها: النجاحات التي تحققها المعرفة على الأصعدة المختلفة.

وهذه المناهج ليست ثابتة ثباتاً مطلقاً، وإنما من خلال تراكم الخبرات المختلفة يجري نوع من التطوير لتلك المناهج، يبقي على خير ما فيها، ويتخلّص مما ثبت قصوره وعقمه.

(أ) أنواع مناهج البحث:

تعود أنواع مناهج البحث العلمي إلى ثلاثة مناهج أساسية، هي: المنهج التجريبي، والمنهج الاسترادي، والمنهج الاستدلالي.

ولا يعنينا كثيراً التعريف بهذه المناهج قدر ما يعنينا بيان أمرين: **الأول**: هو أن الموضوعية قد تكتسب بعض الخصوصية نظراً لانبثاقها من أصول خاصة.

والثاني: الكشف عن بعض مظاهر الموضوعية لدى علماء المسلمين، كما في المنهج الاستردادي.

(ب) المنهج الاستدلالي:

هو المنهج الذي نسير فيه من مبدأ إلى قضايا تنتج عنه بالضرورة دون الصيرورة إلى تجربة. وهذا المنهج هو منهج العلوم الرياضية بشكل خاص.

إن علماء المسلمين تجاوزوا المنطق اليوناني - البعيد جداً عن التجارب - في جانبين مهمين:

الأول: الاعتماد على القياس الفطري، وتحديد مجالاته، وعلاقته بالنص. **والثاني**: إرساء منهج للتجريب يساعد على مواجهة الطبيعة والكشف عن السنن الكونية بغية إعمار الأرض واستنباط خيراتها.

وفي الجانب **الأول** فإن مجتهدي المسلمين اعتمدوا على تفجير طاقات العربية من أجل فهم النصوص مع الإحاطة بظروف ورودها؛ وذلك بغية العمل بالنص على وضعٍ يفهم من النص ذاته.

والأمر **الثاني** الخطير في منهج الاستدلال عند علماء المسلمين يقوم على القياس الفطري الذي لا يعني أكثر من مدِّ سلطان النص بعد إدراك علّة الحكم المستفادة منه ليشمل بحكمه كل ما توفرت فيه علّة النص الأصلي وظروف تطبيقه.

وهذا القياس يعتمد على نوع من الاستقراء من أجل تعميم أحكام النصوص، وهو قائم على مبدأين اثنين:

الأول: قانون العلّية، أي: أنّ لكل معلول علة، ولكل أثر مؤثراً.

والثاني: قانون التناسق والنظام في العالم، أي أن المظاهر الجزئية للكون وإن اختلفت أشكالها ترتبط بعلل كلية من شأنها أن تبثّ التناسق والانسجام فيما بينها..

أما المنهج **الثاني** الذي خرج به علماء المسلمين على منطق أرسطو فهو المنهج التجريبي، إن المسلمين شعروا أن مهمتهم في هذه الأرض هي هداية الخلق، وتبليغ الدعوة إلى الناس جميعاً، وإزالة كل ما يعترض سبيل هذه الرسالة، وتسليح الحق بالقوة التي تحميه؛ حتى يكون له سلطان نافذ. وهذا كله جعل المسلم يفكر تفكيراً واقعياً، كما جعله يتجه بحواره إلى الطبيعة، يعمّر الأرض، ويكشف عن كنوزها.

إن المسلمين كانوا موضوعيين حقاً حين أوجدوا منهجاً للاستدلال، ومنهجاً للتجربة يتناسبان مع خصوصية عقيدتهم ورسالتهم ونظرتهم المصادر المعرفة.

(ج) الموقف من الخبر، أو المنهج الاستردادي:

وضع علماء المسلمين قاعدة في البحث العلمي تقول: "إذا كنت ناقلاً فالصحة، وإذا كنت مدعياً فالدليل". وأما قضية النقل، والموقف من المنقول فإنما عني المسلمون بهذا الجانب من مناهج البحث؛ لأن التحقق من صدق الخبر تترتب عليه نتائج تصوغ فكر المسلم وسلوكه؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكلَّف بتبليغ الرسالة، ومن ثم فإن أقواله وأفعاله وإقراراته لما يرى، ويسمع من أعمال الناس تعد مصدراً من مصادر التشريع، ولذا فإن علينا أن نتأكد بكل وسيلة ممكنة من صحة ما ينقل عنه، وقد بذل المسلمون في هذه السبيل من الجهود المضنية ما لم تبذله أمة من الأمم، فماذا فعل المحدثون للتأكد من صحة الأخبار التي وردت إليهم؟.

بالإمكان أن نركز الجواب في النقاط التالية:

أ- صدق الرواة شرط أساسي لا بد من توفره فيهم.

ب- لا بد أن يكون الراوي ضابطاً حافظاً يؤدي المرويات على ما سمعها.

ج- أن يكون سمع ممن فوقه، ومن فوقه سمع كذلك ممن فوقه، وهكذا إلى مصدر الخبر، وهو ما يعبرون عنه بضرورة اتصال السند.

د- أن يخلو النص نفسه من الشذوذ والعلة القادحة. وهذا ضرب من النقد الداخلي للنص.

هـ- لا بد من توفر هذه الشروط في كلِّ راوٍ من الرواة دون استثناء.

٢- موضوعية علماء المسلمين تجاه تقويم الأشخاص

فيما يأتي أهم المفردات التي تجلّت فيها موضوعية علماء المسلمين في الحكم على الأشخاص:

أ- إن المسلمين يرون أنه لا يوجد إنسان هو خير محض، ولا إنسان هو شر محض - إلا من عصم الله -

وتنسحب هذه النظرة على الجماعات والطوائف والملل؛ فمقادير الخيرات والكمالات تتفاوت بين ملة وأخرى، وكذلك درجات الشرور والنقائص تتفاوت بين أمة وأخرى.

ب- مراعاة اختلاف أحوال بني البشر:

نظر علماء المسلمين إلى الإنسان على أنه خطاء تواب؛ فهو ساحة المعترك بين الحق والباطل، فتارةً ينتصر الحق على الباطل عنده، وتارة يهزم، وتارة يغلب عليه الإنصاف، وتارة الظلم وأدركوا كثيراً من الظروف والملابسات التي تضعف من مقاومته لأهوائه وشهواته؛ ومن ثمّ فإنهم لم يأخذوا بكل قول يقال مجرداً عن ظروفه وسياقاته، وإنما حاولوا استبطان الأمور، والنفاذ إلى الدوافع الخافية من أجل حكم متوازن منصف.

ومن هذا القبيل إدراكهم لما تثيره الشحناء والعداوة بين الأقران والنظراء من ظلم بعضهم لبعض وتضخيم بعضهم سيئات بعض مع الإغضاء عن المناقب والحسنات

ولم تقتصر معرفة علماء الحديث على العلاقات الفردية بين الأشخاص؛ لكنها تجاوزت ذلك إلى معرفة مزاج مدن وطوائف وأشخاص تجاه بعض المدن أو المذاهب الأخرى وهذا ليس بالأمر السهل؛ لأنه يتطلب استقراء واسعاً، ونظراً مركباً.

هذه التفصيلات في أحوال الناس ليس لها مثيل عند أمة من الأمم، وهي تمثّل قمة الموضوعية، ويحق لنا أن نفاخر بها حقاً.

اللغة الكمية:

استخدام اللغة الكمية اليوم يمثل مؤشراً هاماً من مؤشرات التقدم العلمي؛ ومن هنا كانت محاولات المحدثين في هذا الصدد قفزة ذهنية وحضارية متفردة، وذلك حين عمدوا إلى تحديد معاني الألفاظ الدالّة على الجرح والتعديل وترتيبها؛ لانعكاس ذلك على قيمة النص الذي يرويه العالم، وقيمة الرأي الذي يبديه.

وهذه التحديدات لم تعقد لها المؤتمرات، ولا وقع عليها الإجماع؛ ولذا فإنّ نوعاً من التفاوت في استعمال هذه الألفاظ قد يقع عندهم.

د- الإنصاف:

الإنصاف يقتضي ذكر محاسن الشخص ومثالبه عند الحاجة إلى تقويمه.

ومن أجمل مظاهر الإنصاف إنصاف الخصوم، وحين يترجم أهل السنة والجماعة لأحد من أهل الأهواء فإنهم ينصفونه بذكر صورة كاملة فيها المناقب والمثالب كما يفعلون تماماً حين يترجمون الواحد منهم، على أن ذكر الصورة كاملة لمن يترجم لهم المحدثون - غالباً - ليس مقصوراً طبعاً على أهل الأهواء والبدع، وإنما اتخذوا ذلك منهجاً عاماً سواء أكان ذلك في الثقات أو الضعفاء والمجروحين، وسواء أكان ذلك في رجالات الحديث أو رجالات الفقه أو الشخصيات العامة.

ومن جملة مظاهر الإنصاف عدم اعتدادهم بكل قول يقال؛ فقد يكون القائل مغرضاً، أو جاهلاً، أو متعنتاً، أو قلد من هو كذلك. وقد يكون القائل غير مؤهل لإصدار الأحكام فيما جرح.

إن هذه التجليات الموضوعية هي وليدة التعاليم الإسلامية في هذا المجال. وما وجد في حياتنا قديماً وحديثاً مما يخالف ما عرضناه هو قعود عن مسايرة المنهج، أو انحراف عنه. وكلما تجذّر المسلم في فهم دينه وجد نفسه مغموراً بالموضوعية دون دراية منه.

٣- موضوعيتهم حيال الأفكار والأحداث

تجلت موضوعية علماء المسلمين تجاه الأفكار في نقطتين، وهما: الواقعية والوسطية.

أ- الواقعية:

من مظاهر الواقعية:

أ- الانشغال بالواقع:

جاء الإسلام من أجل إصلاح الواقع، وحل مشكلات الناس، ولذا كان من الطبيعي أن يلتحم بذلك الواقع. وكانت البداية أن القرآن الكريم نزل منجّماً مواكباً لحال الأمة والدعوة خطوة خطوة، وتكامل ذلك مع توجيه القرآن الكريم لهم بعدم الإكثار من المسائل التي لا تعنيهم في أمور دينهم.

ب- تقدير العوارض والطوارىء في حياة البشر:

تجلّت قواعد كثيرة في الفقه الإسلامي بغية معالجة ما يقع في حياة الناس من الحوادث والحالات نتيجة الضعف الجبلّي، أو ما يطرأ من الظروف المختلفة التي تجعل في التكليف الأصلي، وما يترتب عليه من أحكام نوعاً من المشقة غير المعتادة.

فمن القواعد التي تحكم حالات الاضطرار قولهم: (**الضرورات تبيح المحظورات**)، وقولهم: **المشقة تجلب التيسير**. وقد فرعوا على هاتين القاعدتين عدداً كبيراً من الأحكام والقواعد الفرعية التي تدفع المشقة، وتزيل ما يمكن إزالته من حالات الاضطرار.

وقد لاحظ بعض الباحثين أن اعتبار المشقة والتخفيف فيها يخضع للضوابط التالية:

١- اهتمام الشارع؛ فكلما كان اهتمام الشارع بالمطلوب الشرعي أشدّ احتيج للتخفيف فيه.

٢- تكرار الفعل ودوامه؛ فإنّ تكرار الفعل المكلف به، أو استدامته يدعوان إلى مراعاة جانب التخفيف فيه.

٣- عموم الطلب وشموله لأفراد كثيرين؛ فإنّ المطلوب الشرعي إذا كان عاماً شاملاً لأفراد كثيرين وقع الترخيص فيه؛ لئلا يؤدي إلى مشاق عامة كثيرة الوقوع.

٤- مدى ما يلحق المكلّف من ضرر؛ لاختلاف أحوال المكلّفين في تحمّل المشاق بحسب ظروفهم واستعداداتهم.

والفكر الإسلامي مع مسايرته للواقع، فإنه يهيب بالمسلم ألا تتحول الضرورات إلى ثوابت في حياته؛ ولذلك وضع الفقهاء ضوابط أخرى تحدّ من ذلك التمادي، وهي: (الضرورات تقدر بقدرها)..

كما أن علماء المسلمين تبعاً لتوجيه الشارع قرروا سقوط الإثم عن المخطىء والناسي.

ومما تجلت فيه واقعية علماء المسلمين ما يسمونه العذر بالجهل، ومن الضوابط التي ذكرها الفقهاء في هذه المسألة:

١- لا يعذر بالجهل بأصل من أصول الدين كوحدانية **الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

٢- لا يعذر المسلم بجهل المحرمات الأساسية المشهورة كقتل النفس والزنا وشرب الخمر.

٣- يعذر من كان حديث عهد بإسلام.

٤- يعدُّ الجهل عذراً في المسائل الدقيقة التي لا تشيع في صفوف العامة، وإنما يتناقلها العلماء بينهم.

ومما تجلت فيه الواقعية قضية اعتبار الأعراف والعادات السارية بين المسلمين، فمن القواعد التي يتجسد فيها ذلك: "**العادة محكَّمة**".

ومن صور الواقعية الاحتكام إلى الذوق العام في بعض المسائل؛ فممّا يرجع فيه إلى الذوق العام محددات المروءة ونواقضها؛ فما يكون إخلالاً بالمروءة بالنسبة لبعض الناس لا يكون كذلك بالنسبة لآخرين والذي يحدّد ذلك هو الذوق العام.

ب- الوسطية:

من مظاهر الوسطية:

١- المستوى العقدي:

يرى أهل السنة والجماعة أن الإيمان تصديق وإقرار وعمل؛ حتى يكون واقع حياة الإنسان منسجماً مع معتقداته وآرائه، وحتى لا تسود الازدواجية بين داخل الإنسان ومسلكه، كما هو الشأن عند النصارى الذين لا يعرفون من النصرانية إلا بعض الرقائق التي يطمئنون بها أنفسهم. وكما نراه واضحاً عند غلاة المرجئة الذين يقولون: لا تضرّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

ويقف الخوارج على الجانب الآخر إذ يكفّرون مرتكب الكبيرة. ويقف المعتزلة مذهباً عجيباً حين يقررون أن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، فهو في منزلة بين المنزلتين. فكان مذهب أهل السنة وسطاً؛ فهم يقولون لا بدّ من العمل، ولكن يفوّضون أمر فاعل الكبائر إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهم متفقون على أنه إن لم يعف الله عنه، وأدخله النار، فإنه لا يخلّد فيها.

إن سر توسط أهل السنة والجماعة أنهم لا يأخذون من النصوص ما يوافق أهواءهم، ويعرضون عن الباقي، ولا يضربون بعض النصوص ببعض، لكنهم يعتقدون أن النصوص يُصدق بعضها بعضاً، ويهدي كل منها إلى جانب من جوانب البحث، وقد كتب الله لهم التوفيق في الجمع بينها وما بين الطرفين إلا الوسط.

٢ - المستوى السلوكي:

وجد في هذه الأمة من مال إلى التعنّت والتصلّب والابتعاد عن كثير من المباحات، كما وجد فيها من أخذ نحو التفلت من الفرائض والواجبات مدعياً أنه صار فوق التكليف!!.. وقد وقف العلماء من هذين النموذجين موقفاً حازماً يستند إلى الحنيفية السمحة التي لا تفرّق بين الغلوّ والتفريط في التغليط والإدانة.

٤- التعامل مع الحقيقة:

فرق كبير بين من يستمدّ موقفه تجاه الأحداث المختلفة من خبرته الشخصية، وثقافة مجتمعه، وبين من يملك أصولاً هاديةً يقوّم من خلالها الاتجاهات المختلفة من حوله. وهذه الأصول هي التي تتركز فيها نعمة الهداية التي امتن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها على المسلمين. والآن تحاول أن ترى الثمار التي نعمت بها هذه الأمة نتيجة استجابة كثير من أبنائها إلى الإسلام وتعاليمه. ويمكن أن نلحظ ذلك في النقاط التالية:

أ- الوقوف على الحقيقة:

إدراك الأمور على ما هي عليه يحدد الموقف المطلوب منها الامتثال أو الاعتبار، أو المناهضة، وقد كانت الثمرة الأولى لتوجيه القرآن الكريم بالتبين وعدم الجري وراء الظنون والأهواء والاحتياط الشديد في الرواية والتلقي، فلم يرووا الأحاديث إلا عند الحاجة، وكانوا في روايتهم يتحّرون الدقة، ويحتاطون، فكثيراً ما يقول أحدهم بعد رواية الحديث: نحو هذا، أو كما قال، أو شبيهاً بهذا، وأحياناً كانوا يطلبون البيّنة من الراوي على صدقه.

وقد كانت التهمة توجه إلى علماء المسلمين أنهم لم يهتموا بالنقد الداخلي للنصوص، وإنما اعتمدوا على دراسة الأسانيد وحدها. وهذه التهمة التي لفقها المستشرقون ومن يحطب بحبالهم خالية من الصحة تماماً، ويمكن تبيّن ملامح ذلك من خلال ما يلي:

١- وجد المحدثون أن هناك أحاديث ركيكة في ألفاظها مبتذلة في معانيها، وهي مع ذلك مغايرة للميسم العام الذي مهر به كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢- أن يكون الحديث مخالفاً للقضايا المقررة، كأن يكون مخالفاً للعقل، ولا يقبل التأويل، أو اشتمل على أمر يدفعه الحس والمشاهدة، أو الواقع التاريخي.

٣- أن يكون الحديث خبراً عن أمر جسيم تتوفر الدواعي على نقله بمحضر الجمع، ثم لا ينقله إلا واحد.

٤- أن يكون في الحديث عصبية على أهل لغة أو بلد أو جنس أو مذهب.

٥- أن يشتمل الحديث على ما يخالف المبادىء العليا في الشريعة.

٦- أن يكون الحديث مشتملاً على مستحيل ومنكر.

٧- أن يحتوي الخبر على معانٍ ينفيها المعروف من التاريخ.

ابن خلدون والنقد الداخلي:

صرف ابن خلدون عنايته لنقد الأخبار التاريخية قبل النظر إلى مضامينها، واعتبار طبائع الأشياء، وما جرت به العادات والأحوال ويمكن تركيز أفكاره النقدية في النقاط التالية:

١- ضرورة قياس الغائب من الأحوال على الشاهد، لأن الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء.

٢- يرد الأخبار التي تدل على وجود عجائب في بلاد مسكونة مطروقة يتردد فيها الناس، ثم لا يرون شيئاً مما ذكر.

٣- يرى ابن خلدون أن التشيّع للآراء والمذاهب قد أعمى بصائر المتعصبين عن نقد الأخبار التي يروونها.

٤- من الأسباب التي تدعو إلى انطماس الحقائق وذيوع الأكاذيب أن الناس يتقربون لأصحاب السلطان والمراتب بالثناء، فتستفيض الأخبار بثنائهم، وهي بعيدة عن الحقيقة، ثم يأتي الرواة، فيتلقّفون ذلك، ويذيعونه من غير بصيرة، ويأتي من بعدهم ليأخذوا صورة عن أوضاع أصحاب النفوذ والسلطان من خلال ما تناقله المؤرخون الذين يحطبون كل ما يجدونه!!.

٥- إن لكل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً طبيعةً تخصه في ذاته، وفيما يعرض من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص

الخبر على تمييز الصدق من الكذب. وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض.

٦- لا ينظر في عدالة الرواة إلا إذا كان الخبر المروي جائز الوقوع، فإذا كان مستحيلاً فإنه لا فائدة من النظر في توثيق الرواة، وتعديلهم، وهو بهذا يلتقي مع المحدثين.

ب- ما بين الظنّ واليقين:

التفريق بين هذين الضربين من الحقائق لا يدركه إلا أولو العزم من العلماء المحقّين الذين عرفوا قدر النتائج التي توصلوا إليها، فأنزلوها منازلها!

وإدراك كنه النتائج التي نتوصل إليها على الوجه الصحيح ضروري جداً في عملية تحديد الموقف من المخالف، فالمخالف في القطعيات غير المخالف في الظنيات.

ومما نجده عند علماء الأصول في هذا الباب أنهم قسّموا المسائل الشرعية إلى أقسام قسم منها قطعي معلوم من الدين بالضرورة، وقسم منها فيه أدلة قاطعة، لكنه ليس من الضروريات الشرعية التي يستوي في معرفتها الخاص والعام، وقسم ثالث من المسائل الشرعية لا قواطع فيها، وإنما أدلتها ظنية.

وقد انبنى على هذا الموقف مرونة عجيبة من السلف تجاه بعضهم بعضاً في قضايا الخلاف، فهم لا يكفرون، ولا يفسقون، ولا يؤلمون ما دام الخلاف في غير المسائل الواضحات المعلومة من الدين بالضرورة.

ج- فقه الموازنات:

ويمكن أن نحصر أهم صور فقه الموازنات في جانبين من جوانب التشريع.

الأول: يشتمل على مجموعة من القواعد الفقهية التي توصّل إليها علماء المسلمين، **والثاني** يشتمل على صور من الترتيبات بين الكليّات الخمس التي عنيت الشريعة بحفظها.

ويمكن أن نلاحظ في **الجانب الأول** مجموعة من القواعد الفقهية التي تعبّر عن موازنة دقيقة بين المصالح والمفاسد، ونجد من هذه الموازنات قولهم: "**وإذا تعارض مفسدتان روعي ضرراً بارتكاب أخفّهما**" وقولهم: "**الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف**". وقولهم: "**يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام**"

والجانب الثاني يتجلى فيه الكثير من الأحكام الجزئية التي تحكم الأحوال التي تبذل فيها النفوس لأجل الدين، أو يؤخر أمر الدين من أجل النفوس أو الأموال أو الأعراض... إلخ. والناموس العام الذي يقضي بتقديم كلية من الكليات الخمس على غيرها هو: **عظم المنفعة المحصلة، وعظم المفسدة المدفوعة**.

د- ما بين الأشخاص والأفكار:

ويمكن أن نجلو من موضوعية علماء المسلمين في هذا الباب النقاط التالية:

١- رفض المبالغة:

تمثل المبالغة حيال مسألة من المسائل نوعاً من التفلّت من القيود التي تحكم تلك الحقيقة، سواء أكانت شرعية أم عرفية، كما أن المبالغة نزعة شخصية نضفيها على الموضوعات المختلفة، وحين تكون الحقيقة شرعية فإن المبالغة في تصويرها تعدّ خروجاً على منهاج الشريعة التي تأمرنا بوضع الأمور في نصابها دون بخس، ولا شطط.

وقد تصل المبالغة حدّاً ممجوجاً يخرج على النصوص، خروجاً صريحاً مع سوء الأدب مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى والتعدي لحدوده!.

٢- المنهج فوق الأشخاص:

الأصل أن يخضع المسلم لمنهج الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لكنّ الملابسات الكثيرة تختلط الأمور، وتظن العصمة في غير المعصوم، ويذهب كثير من الناس للحفاظ على ما استقر في نفوسهم من تقديس بعض الأشخاص إلى تأويل المنهج، وتفسيره تفسيراً متكلفاً لا تسعفه طاقات اللغة، ولا الأدلة الثابتة.

والمستقر عند جميع العقلاء أنه لا يوجد من انفرد من المجتهدين بالصواب في كل المسائل التي ذهب إليها، وأنه لا يوجد مذهب من المذاهب في الفقه أو النحو أو العلوم قد انفرد بالصواب كله، كما لا يوجد مذهب مضى بالخطأ كله.

٣- قوة الحقيقة ذاتية:

إن من إجلال الحقائق وإعطائها حقها أن نعترف بها، وننزلها في منزلها الذي تستحقه بقطع النظر عن قائليها، سواء أكان ذلك القائل صديقاً أم عدواً، عالماً أم جاهلاً.

ولا يشترط للحقيقة حتى تثبت أن نجد لها شواهد من ثقافتنا، أو من منهجنا فإن عدم وجود مانع لدينا كاف في هذا المقام لإزالة كل الحواجز التي تقف في وجه قبولها.

وقد علمنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبول الحقائق مهما كان مصدرها ما دامت حقائق، وما دام ليس في مناهجنا ما يصادمها.

وعلينا أن ننسب كل حقيقة لمكتشفها، وكل فكرة لمبدعها كائناً من كان، لأن هذا من الإنصاف الذي أمرنا به، وفي الجهة المقابلة فإنّ الرأي الذي لا تسنده الأدلة لا يستمد صحته من سلطان قائله، ووجاهته.

الفصل الخامس

صور ومواقف تنافي الموضوعية:

١ التعصب

٢ المبالغة

٣ عقلية البعد الواحد

٤ التفسير التآمري للتاريخ

٥ لكل قاعدة شواذ

٦ إسقاط القاعدة بالمثل الشاذ

١ تقديس الفرد

٢ الخلل في علاقة المتقابلات

٣ الكيل بمكيالين

٤ الخضوع لسلطة الجماهير

٥ سوء التعامل مع الألفاظ

٦ اضطراب ردود الأفعال

١- التعصب

تقوم آلية التعصب على اعتقاد المتعصب أنه قبض على الحقيقة النهائية التي تدفع به إلى وجوب الالتزام الكامل برأي أو مذهب أو جماعة أو قبيلة أو فترةٍ تاريخيةٍ معينة مما يجمع عادة بين الفضيلة والرذيلة والحسن والقبح والخطأ والصواب. ويقتضي ذلك الالتزام الدفاع الصلب عنه في وجه كل ما يخدش مضمون ذلك المعتقد.

ويمثل التعصب ضرباً من ضروب الأنانية حيث يكون المتعصب جزءاً مما يتعصب له على مستوى النسب، أو المكان، أو الفكرة. ولا يكون التعصب غالباً مبنياً على غير أساس، وإنما يقع فيه التجاوز والمبالغة؛ مما يحيل المتعصب إلى متطرف حقاً.

ومن أهم الدوافع التي تؤدي بالمرء إلى التعصب: الاستفادة ممن نتعصب له، والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد؛ حيث تتوفر في كثير من البيئات ألوان من التعصب تنتج في العادة عن سيادة روح التعصب في جميع الأحكام والعلاقات والرؤى الاجتماعية، وكثيراً ما يتعصب شعب أو فرد لماضيه نتيجةً لسوء الواقع، وكثيراً ما يكون الدافع قهرياً لا حيلة للمرء فيه، وذلك حين تكون التربية الاجتماعية المتوارثة قائمة على رؤية (ذرية)

للأشياء والأحداث والأفكار وهذه الرؤية تكون في العادة عاجزة عن إبصار القضايا الكلية.

وإليك بعض النماذج التي تجسّد هذه الآفة الخطيرة:

أ- التعصّب لأهل البيت:

حدث خلل عند طوائف وأفراد من أهل السنة وغيرهم، وقد أوصلهم ذلك الخلل إلى نوع من الغلو في حبّ قرابة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغ بهم ذلك الغلو أنهم أحبوهم، وقدّسوهم أكثر من حبهم لرسول الله الذي أحبوهم من أجله.

ب- التعصّب للمذهب:

وإليك بعض النماذج التي تصور ألواناً من التعصب المذهبي:

١- إثبات الفضائل مهما تكن غريبة:

من صور التعصب المذهبي تلمّس الفضائل للأئمة، وإن كانت تلك الفضائل بعيدة الحصول غريبةً عما ألفه الناس في ماضيهم وحاضرهم؛ مع أن للأئمة الأربعة خاصة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من الفضل الثابت الصريح والمكانة السامقة المرموقة ما يغنيهم عن المدائح الكاذبة التي يقترب بعضها من الخرافة!.

٢- اعتقاد أن كل ما في المذهب صحيح:

من المشهور في الأوساط الفقهية القول: مذهبنا صحيح يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب، لكننا نجد من الإطلاقات والمواقف ما

يشير إلى اعتقاد بعض أتباع الأئمة من علماء المذاهب الفقهية بصحة كل ما في مذهبهم، بل بخطأ كل ما في المذاهب الأخرى؛ مما يعني إجهاضاً كبيراً لكل ما أرسي من القواعد الأصولية في باب الاجتهاد.

٣- التّشنيع على المخالف:

حصر الحق في شخص أو مذهب لا بد أن يؤدي في النهاية إلى نوع من التشنيع على من خالف من حصر الحق فيه شئنا أم أبينا؛ فمنطلق الخطأ يكمن في جعل الظني كالقطعي، والمختلف فيه كالمجمع عليه.

والتشنيع أو المبالغة هو رد فعل منحرف على انحراف آخر، فحين يحاول المرء أن يصور امرءاً غير معصوم تصويراً يلحقه بالمعصومين فإنه ينبه بذلك الأذهان إلى نقائص ذلك؛ لأن الضد أقرب خطوراً في البال.

التعصب اليوم:

خفّت حدة التعصب اليوم للمذاهب الفقهية والأشياخ، أما التعصب لأهل البيت فإن اتخاذه ذريعة للشقاق يحول دون وضع نهاية منظورة له.

ومما لا زال بارزاً في حياة المسلمين إلى اليوم التعصب للتخصص، حيث يدعي كل واحد من أقطاب التخصصات العلمية أن حال العالم لن يصلح إلا إذا أخذ الأفكار والمنطلقات التي يوفرها ذلك التخصص، أما أصحاب التخصصات التقنية فلهم شأن آخر، حيث يرون أن مشاكل الأمة تتمحور حول تخلّفنا العلمي والتقني، وأن ما يجري من دراسات في المجالات النظرية ليس أكثر من هدر للطاقات والأموال والأوقات.

وهذا كله مخالف للمنطق المستقيم، وتجارب الماضي والحاضر فالحضارة الإسلامية حين قامت ازدهرت فيها كل العلوم والفنون دون استثناء؛ والحضارة الغربية اليوم تعنى بالدراسات النظرية عنايتها بالدراسات التقنية؛ فما يطبع في ألمانيا – على سبيل المثال – في الدراسات الإنسانية أضعاف ما يطبع في المجالات التقنية.

ومن ألوان التعصب السائدة اليوم الانحياز للحزب أو الجماعة التي ينتسب إليها الفرد المسلم، وإن مما يقضي على التعصب، أو يحجمه في هذا المجال هو أن تقوم صلة المسلم بالجماعة أو الحزب على التعاون العملي، فإذا رأى أن بإمكانه أن يساعد جماعة أخرى في عمل من الأعمال، فعليه ألا يتردد، لا سيما إذا كان ذلك العمل يتطلب وجوده، لاختصاصه به، أو نحو ذلك.

ومن ألوان التعصّب التي نراها اليوم التعصب للوطن، وحب الإنسان لوطنه أمر فطري، لكن كل ذلك ينبغي أن يكون تحت هيمنة المنهج، بحيث لا يشكّل حب الأوطان رابطة تحجز المسلم عن أخيه المسلم الذي ينتمي إلى رقعة مكانية أخرى.

٢- المبالغة

إنّ الدوافع للمبالغة كثيرة، منها:

- التعصب لمن يبالغ في مدحه، أو على من يبالغ في ذمه والتحامل عليه.
- الولع بحب الغرائب.
- النزوع إلى الصناعة اللفظية.
- عدم إمكانات التحقق دائماً من صحة ما يقوله المسرفون، وذلك لعسر المسالك، وصعوبة وسائل الاتصال، وقد كان هذا في الماضي أكبر أثراً منه اليوم.
- ضعف النقد الداخلي للخبر الذي اعتمده الفقهاء والمحدثون.
- وفي حالات التحامل ضد بعض الأشخاص قد يكون الدافع إلى المبالغة شعوراً بنوع من أنواع النقص، مما يجعل بخس الناس أشياءهم وسيلة للتخلص من ضغط ذلك النقص.

وإليك صورتان من صور مبالغات الأقدمين:

(أ) المبالغة في الإطراء

(ب) المبالغة في التشنيع

المبالغة إلى أين؟

سيظل هناك صنف من الناس يحبّ السير بالأمور إلى حدودها القصوى؛ لأن ما ذكرناه من دواعي ذلك وأسبابه موجود.

وتفسير الظواهر المختلفة تفسيراً يقوم على التضخيم صار جزءاً مهماً من لغة العصر وخططه.

٣- عقلية البعد الواحد

نعني بالعقلية: مجموعة الصور الفكرية والعادات النفسية والاعتقادات الرئيسة في الفرد.

ونعني بالبعد الواحد: التأكيد على عنصر واحد من ظاهرة ذات عناصر متعددة إدراكاً وتعاملاً وإبرازاً، وإذا أردنا أن نجمل أسباب تكون بصيرة مصابة بعمى الألوان أمكننا أن نذكر ما يلي:

أ- فقر البيئة:

إن البيئة الطبيعية حين تكون فقيرة هشّة فإنها تعكس فقرها على خيال أبنائها؛ إذ إن العقل لا يتمكن حينئذ من تركيب توافيق كثيرة.

وهناك لون آخر من فقر البيئة هو أهم وأبعد أثراً، ذاك هو الفقر الثقافي؛ فالبيئة التي يسودها الجهل - والجهل فنون - لا تتمكّن من إدراك أبعاد عديدة للأشياء، ولذلك فإن عقلية أبنائها تميل إلى التصلب في تعاملها مع الأشياء.

وثمة نوع آخر من أنواع الفقر هو الفقر في الأدوات والوسائل، وهذا النوع ليس إلا ثمرة للفقر في النوعين السابقين.

ب- انعدام الحوار:

يعني الحوار في أبسط صوره أن تري محاورك ما لم يره، وأن يريك ما لم تره. وهو في هذا مضاد للمناظرات التي تؤدي في أحيان كثيرة إلى تعميق البعد الواحد.

لا يكون الحوار ذا فائدة تذكر إذا دار بين قوم تهيكلت ثقافتهم على التقليد والنقل.

والذين تعوّدوا الاعتماد على غيرهم؛ ليفكّروا عنهم غير قادرين على الدخول في حوار جاد، وإذا دخلوه فإنهم غير قادرين على الاستمرار فيه؛ لأن الحوار متصل بالاجتهاد، والقدرة على التوليد.

والمشكلة التي تسبق كل ذلك هي نظر كثير من المثقفين إلى الحوار على أنه نوع من التنازل للمخالف، قد يخدش صلابة المعتقدات، ووثاقة الإنسان بما يحمل من أفكار، وبعضهم ينظر للحوار على أنه مضيعة للوقت، وهو كلام في كلام.

ج- التعامل مع الواقع على أنه كتلة صلدة:

الذين يفكرون في اتجاه واحد ينظرون إلى كل المشكلات الكبرى التي تحيط بهم أنها أحادية التركيب عديمة المنافذ، مستحيلة التجزئة، فلا يمكن التعامل معها، فيلجؤون إلى تجاهلها، أو رميها، والخلاص منها، لكن يكتشفون بعد مدة أن تبخير المشكلة كلها غير ممكن، وتقسيمها أيضاً غير ممكن، والنتيجة هي القعود والجأر بالشكوى مع بقاء المشكلة على ما هي عليه، بل تفاقمها.

وسبب التعامل مع الواقع على هذه الصورة يرتكز على نقاط عديدة منها:

- عدم النظر إلى بدايات المشكلة، وظروف النشأة والعوامل المؤثرة فيها.
- قصر عمر الإنسان؛ فهو لا يدرك الكثير من أطوار المشكلة.
- الغفلة عن سنة التدرج التي تحكم كل الظواهر الاجتماعية.
- الغفلة عن سنة التدافع في هذا الكون، هذه السنة التي لا تسمح بتجمهر الخير وحده، كما لا تسمح بتجمع الشر الخالص.

د- الميل إلى التبسيط:

يندفع الإنسان نحو التبسيط لعوامل كثيرة، منها:

- إدراك جزء من الأسباب الفاعلة، وغياب بقية الأسباب عنه.
- الفقر في المفردات اللغوية.
- الرغبة في السهولة في تصور الأشياء والأحداث.
- طلباً لسهولة الحفظ والتداول والانتقال.
- لإشباع حاجة نفسية أو اجتماعية.

إن تبسيط الأمور عدو لدودٌ للملاحظة والتجريب والتخصص، لأن هذه الأمور الثلاثة لا تأتينا عادة إلا بالتفريع والتفصيل.

وأخيراً فإن التعامل مع الأشياء على أنها كتلة صلدة، والميل إلى التبسيط يؤديان إلى نتيجة واحدة هي عطالة الفكر، لأن التفكير في الحالة الأولى لا فائدة منه، وفي الحالة الثانية لا حاجة إليه!.

هـ- الرؤية النصفية:

إن أخطر ما يشكل عقلية البعد الواحد أن يرى المرء نصف الحقيقة ويحجب عنه النصف الآخر، وذلك لأن أكثر الأشياء والأحداث والأشخاص يمتزج فيها الخير والشر، أو تكمن فيها القابلية لهما، وحين يبصر المرء ما يراه بشكل كامل فإنه تتشكل لديه العقلية الترجيحية)، فترى ولو بشكل تقريبي الحسنات والسيئات والإيجابيات والسلبيات، وحينئذ فإن أحكامه تكون موضوعية متوسطة بعيدة عن التفاؤل المفرط، لأنه يرى الجانب السلبي، وبعيدة عن التشاؤم، لأنه يلمح الجوانب المشرقة.

أما الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى استفحال هذه الظاهرة فهي:

الاستبداد والقهر السياسي:

إن تراجع القيم في نفوس الناس بعد مرحلة الخلفاء الراشدين كان يصاحبه اتساع للحيز الذي تحتله المصلحة الشخصية على صعيد الدولة والأمة والجماعات والأفراد، وبما أن كل شيء يظهر في حياة الدولة مكبّراً، فإن ظهور آثار تراجع القيم يكون صارخاً جداً حيث تملك الدولة ذهب المعز وسيفه، وهي من خلالهما تستطيع تشكيل دوائر متسعة من الخائفين بالجهر بالحق، ومن المدارين، ومن المرتزقة الذين تنمو لحومهم على حساب دينهم وكرامتهم. وتؤدي هذه الأنماط الثلاثة دوراً متكاملاً بطريقة لا شعورية في إخفاء النصف الذي لا ينبغي أن يظهر من الحقيقة أما المستعدون لكسر الطوق في حالات تراجع القيم فهم قلة.

- ومن المؤثرات في الرؤية النصفية ما تركه فنّا المديح والهجاء في ماضينا وحاضرنا من آثار سيئة في تركيبنا العقلي، إنّ كل واحد منهما يمثل قمة التحيز.
- وكان لكتاب التراجم أثر سلبي في هذا حيث عدل أكثرهم عن منهج المحدثين القائم على عرض المناقب والمثالب وصارت مهمة أكثرهم كيل الثناء والمديح من غير حساب.
- حملات الدعاية الواسعة المنظمة التي تستهدف حمل الناس على اعتقادات خاطئة والانصراف عن كثير من المشكلات الحقيقية، والتلهي بالقشور والتوافه والدعاية عبارة عن محاولة للتأثير في عقول الجماهير ونفوسهم والسيطرة على سلوكهم.

إن رؤية نصف الحقيقة شر من الجهل بها، لأنها توجد إنساناً يظن أنه يعرف كل شيء، وهو لم يعرف إلا الجزء الذي يجعله مسماراً في آلة كبيرة، دون أن يعرف شيئاً عن تلك الآلة!

و- الانغلاق:

يسهم الانغلاق مساهمة فعالة في تشكيل عقلية البعد الواحد، وللانغلاق أشكال كثيرة، فقد يكون بضرب ستار حديدي يحول دون حدوث تمازج ثقافي بين دولة ودولة أخرى، وقد يكون انغلاقاً على مستوى التخصص العلمي، وقد يكون عبارة عن شك المرء في كل ما حوله.

إن من المسلّم به أن الوعي بالذات كثيراً ما يتوقف على الوعي بالآخر، وأن الجهل بما عند الآخرين سوف يحرمنا قطعاً من جزء من وعينا بذاتنا!.

وأخطر ما في الانغلاق هو تشكيل العقل الخيالي الذي يحمل الأفكار المغلوطة عن الواقع المعاش، وعن الفكر العالمي.

إن الانفتاح لا يكون إلا ممن يثقون بما عندهم، وقد بنى الإسلام عقلية الانفتاح عند المسلم بأمره بالسير في الأرض، وبإطلاعه على تجارب الأمم الماضية ومواقفها من أنبيائها، ولذلك انطلق المسلم يجوب العالم معرضاً نفسه وثقافته إلى الاحتكاك بأمم وثقافات كثيرة.

٤- التفسير التآمري للتاريخ

إن تعرض المسلم للتآمر ممن يخالفونه في المعتقد وممن ينازعونه ساحات البقاء أمر طبيعي ومفهوم، والمشكلة الحقيقية لا تبدأ بمعرفة التآمر واكتشافه، فوجوده أصل، لكنها تبدأ حين يكون جهاز المناعة لدى الأمة ضعيفاً أو مدمراً، فتصبح مطمعاً لكل طامع، والقرآن الكريم يعلمنا أن أساس المشكلة لا ينبثق من وجود الآخر، فالآخر موجود، لكن بوجودنا الخاطئ الضعيف المقصر:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشُّورَى : ٣٠]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عِمرَان : ١٦٤ - ١٦٥].

إن الموقف من التآمر ينبغي أن يكون مبنياً على العلم، أو الظن الراجح لا على الشكوك، والقياسات الفاسدة.

وتتمثل المشكلة في أن فينا من يشعر بأن العالم كله متآمر عليه، وأنه الضحية التي قتلها العالم، وهو يسعى الآن لاقتسامها، كما يشعر كثير من المسلمين أننا على مدار التاريخ كنا ضحية للتآمر.

والثمرة التي سوف نجنيها من وراء هذا التفكير لخصها د. القرضاوي حين قال: «إن هذا التفسير التآمري للتاريخ وللأحداث داخل أوطاننا سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو تربوية يثمر ثمرتين رديئتين:

الأولى: أنه إذا زاد هذا الشعور فإنه يثمر نوعاً من (الجبرية) التي لا تملك إزاء هذه المخططات الجهنمية حيلة؛ لما تملكه تلك الدول من الإمكانات الهائلة مادياً وأدبياً إزاء ما نحن عليه من عجز ووهن حيالها.

الثانية: إن هذا يعوقنا عن النقد الذاتي لأنفسنا والمحاولة المخلصة لاكتشاف عيوبنا».

٥- لكل قاعدة شواذ

إن إيماننا بأنه لكل قاعدة شواذ يملي علينا إلى جانب الدقّة والحذر في التعبير أمراً آخر هو دراسة كل حالة خطيرة دراسة منفردة تنطلق من الاتجاهات العامة التي تحكم تلك الحالة لكن مع التدقيق في التفاصيل التي منحت الخصوصية لتلك الحالة.

٦- إسقاط القاعدة بالمثال الشّاذ

هذا لون آخر من الخروج عن الموضوعية، وهو مغاير للون السابق في الظاهر لكنهما - حسب المشاهد - يخرجان من مشكاة واحدة؛ فالذين يعممون أحكامهم هم في الغالب الذين يسقطون القاعدة بالمثال الشاذ. وقد وضع أهل التفكير المستقيم قاعدة جميلة في هذا الباب هي: (**الشذوذ يؤكد القاعدة**) وهذه القاعدة تنسجم وتتكامل مع القاعدة (**لكل قاعدة شواذ**)، فحين نقول: إن الحروب الطاحنة تترك وراءها فساداً أخلاقياً وخراباً اقتصادياً نظراً لسوء الظروف التي تفرزها، فإن هذا يعني أن الاتجاه العام يكون كذلك، ولكن على الصعيد الفردي فإن بعض الأشخاص يستفيدون من الحروب كتجار الأسلحة، أو المحتكرين لبعض السلع أو...

٧- تقديس الفرد

إن مشكلة تقديس الأشخاص تنبع أساساً لدى الأمم والشعوب من غياب المنهج أو غموضه أو تعقيده.

ولست أدري من أين تولّد تقديس الأفراد لدى أمّة يعلمها دينها ألا تركع إلا لله، كما يعلمها أن المنهج فوق الجميع، حتى الذين يجتهدون فيه، ويعلمونه الناس؟! هل نظام القبيلة الذي كان سائداً في الجاهلية هو البذرة الكامنة التي أخذت تورق بعد أن صار المنهج غامضاً في أذهان العامة الذين ارتفعت أسهمهم بعد خفوت صوت أهل الحل والعقد، أو أن ذلك تولد عن تقصيرنا عبر القرون في بلورة مؤسسات شورية قوية تعبّر عن رأي الجماعة ومصالحها، وتنمي في الوقت نفسه ضمير الجمعية، أو أن ذلك من طبيعة تعشق التفرد في ذاتها وغيرها، أو أن ذلك إفراز طبيعي من إفرازات التخلف حيث يكون الجميع في انتظار من سيحلّ لهم مشكلاتهم، وحيث يكون الرجوع إلى المنهج مكلفاً. أو أن معالم الشخصية الإسلامية اندرست من خلال عمليات الضغط والقهر لتصبح صالحة للتشكيل حسب ما يريد الطغاة والمتنفّذون ؟؟ هذه كلها احتمالات، وإن كان لا يمنع مانع من أن تكون هذه الأسباب وغيرها قد تعاونت جميعاً في الصيرورة إلى ما نحن فيه.

ونحن بعد كل هذا لا ننكر أثر الأفراد في الزيادة والإصلاح وتجميع الطاقات والمشاعر وتوجيهها، كما لا ننكر دورهم في إعطاء النماذج العملية الواقعية، لكن الذي ننكره هو تضخيم التقدير لهم بحيث يؤمن لهم غطاء معنوي يمكنهم من تجاوز الشورى والنصح والمنهج، ويجعل الناس يهابون نقدهم وبيان أخطائهم...

بعد هذا وذاك ما هي الإشكالات والملابسات التي تترتب على تقديس الأفراد، وإناطة آمال الإصلاح بهم؟

أ- إن تعليق أمةٍ آمالها على بطل للخلاص من نكساتها، يدل على عدم معرفة حسنة بآليات تكوّن تلك المشكلات وحلها؛ فالحل ليس مدخراً عند شخص، لكنه مذخور في دم كل مسلم مهما كان شأنه، والانصراف نحو الأشخاص لحل المشكلات سيكون ضرباً من إضاعة العمر، ومنبعاً ثرّاً للإحباطات المتتالية!

ب- إن تقديس الأشخاص يساعدهم مساعدة مباشرة على تجاوز المنهج والأنظمة والأعراف ومصالح الأمة إن كانوا من الساسة، ويشجعهم على الاندفاع نحو الاجتهادات غير المؤصلة، وعلى الخروج على السلوكيات الإسلامية إن كانوا من العلماء.

ج- تهيّب الناس لنقدهم، أو مراجعتهم في شيء مما فعلوا ذلك لأن البسط كثيراً ما يصاحبه الطغيان كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشُّورَىٰ: ٢٧].

٨- الخلل في علاقة المتقابلات

إليك نماذج عدة من المظاهر التي تنافي الموضوعية في هذا الباب:

أ- ما بين الكم والكيف:

هناك في هذا الوجود علاقة جدلية بين الكم والكيف؛ فكلما زاد الكم نقص الكيف، وكلما زاد الكيف نقص الكم، ويستحيل على الإنسان المحدود الطاقات أن يحول كل كم إلى كيف.

إنّ للكم وظائفه، وللكيف وظائفه، وحين تعرف العلاقة التي تربط بينهما، والوظائف الحيوية التي يؤديها كل منهما نتمكن من إعطاء كل منهما حقه من الاهتمام والعناية.

وحين نريد أن نكون موضوعيين في التعامل مع الكم والكيف لا بد لنا من فقهٍ لمجالات تأثير كل منهما، وخصوصية الظروف التي تمر بها الأمة. ويلاحظ أن التأكيد في بعض الظروف على الكم يكون هو الموضوعية، وفي بعض الأحيان يكون التوكيد على الكيف هو المطلوب؛ وتكون الموضوعية تحقيقه، وقطع النظر عن الكم.

ب- ما بين الوحدة والحرية:

الحرية والوحدة تشتركان في أنّ كل واحدة منهما تساعد في تحقيق ذاتنا وحاجاتنا المختلفة، فإذا ما حققنا التوحد نكون قد عمّقنا الحرية؛ حيث إن كثيراً من الضرورات التي تحيط بنا لا يمكننا التحرّر منها إلا بشيء من الوحدة والتكتل.

ووجه التقابل بين الحرية والوحدة أن الوحدة مع كونها تساعد على تحقيق الحرية في كثير من الأحيان إلا أنها في الوقت نفسه قيد على المتحدين.

إن المحافظة على الحرية تعني في بعض الأحيان المزيد من التوحد المجدي المنتج، كما أن المحافظة على الوحدة قد تستلزم المزيد من تطوير أطرها؛ لتكون أكثر مرونة، أي: لتكون قيودها أقل ثقلاً.

ج- ما بين المسار والطاقة:

الخلل الذي يجعلنا غير موضوعيين في هذه القضية هو اتجاه كثيرين منا على المستوى الفردي والجماعي إلى رسم (المسار) والتنظير له، وهم في الجانب السلوكي بعيدون جداً عن المنهج الذي ينظرون له، ويجتهدون فيه، كما أنهم بعيدون عن الواقع الذي يتحدثون عن إصلاحه!

وفي مقابل ذلك نجد آخرين من المسلمين الطيبين يعتقدون أن في كل حركة بركة وأن المهم هو العمل، كما يعتقدون أن التنظير والتفكير بضاعة الهاربين من ثقل التكاليف، وهذا أيضاً خروج عن الموضوعية؛ فليس كل

حركة بركة؛ فالقعود في الفتنة – مثلاً – خير من الحركة، ثم إن العمل بدون تحسس مستمر للمسار الذي يوظَّف فيه معرض للانحراف المزمن، كما أنه معرض لمشكلات كثيرة لا يحلها إلا الاجتهاد.

وهناك منافاة أخرى للموضوعية تتمثل في استمداد آليات رسم المنهج من غير مكامنها؛ فتلجأ في ذلك إلى أحد عباد الله الصالحين؛ ليضع لنا خطة لإصلاح أمة؛ كما أننا نعمل عكس هذا حين نلجأ إلى الفكر لنستمد منه طاقات العمل، ومقارعة الشهوات!!.

د- ما بين الشكل والمضمون:

الشكل والمضمون شريكان متلازمان، ولا ريب أن بعض ما نلابسه يُطلب فيه الشكل، كما أن البعض الآخر يطلب فيه المضمون، وذلك بحسب الهدف من حيازته واستخدامه، وبحسب النسق الذي نسلكه فيه، ومن خلال استعراضنا لمواقفنا في الحياة نجد أن الميل إلى المضمون هو الغالب، وكان الشكل يمثل في أكثر الأحيان إضافة غير أساسية للمضمون، ومن البدهي أن نولي المضمون، وليس الشكل جلّ اهتمامنا، لكن الذي حدث في حياة الناس اليوم هو الجنوح إلى جانب الشكل على حساب المضمون بصورة فجة، وكان ذلك خروجاً على الموضوعية التي ترفض التحيز على غير أساس.

ولعل السبب في هذه الظاهرة يكمن في أن العلاقة بين الشكل والمضمون كثيراً ما تكون علاقة (الطرد)، فلا يتسع أحدهما إلا على حساب الآخر. ونظراً لأن القيم تراجعت على الصعيد العالمي تراجعا مخيفاً فإن النتيجة

الطبيعية هي اتساع الاعتماد على الأشكال في تحقيق الذات. ومظاهر الجنوح إلى الشكل كثيرة جداً، نذكر منها ما يلي:

أ- النزوع الشديد إلى الاستهلاك، حتى صار الإنسان الاستهلاكي هو الرضيع الأبدي الذي لا يكف عن الصياح في طلب الرضاعة.

ب- تبدّل جوهر العلاقات بين الأصدقاء، فقد كانت الصداقات رصيداً مذخوراً للشدائد، وأصبحت الآن عبئاً - بكل ما تعنيه الكلمة - وحين تصبح العلاقات عبئاً فإنها تصبح شكلية و(رسمية)، وحينئذ فإنها تفقد خاصية الدفء والإسعاد.

ج- زيادة الأعمال الإجرائية زيادة مخيفة وخادعة على حساب الحقائق والمضامين انسجاماً مع كل مفردات الحياة الأخرى.

د- اتجهت عناية الناس نتيجة سيادة المظهرية والشكلية نحو كلّ ما هو مادي محسوس والانصراف عن كل ما هو معنوي مكنون.

٩- الكيل بمكيالين

تتيح مرونة الفواصل بين القضايا الإنسانية، وهشاشة الحدود التي تنتهي عندها الفضائل، لتبدأ أضدادها واستخدام اللغة الكيفية في التعبير عن الظواهر الإنسانية، يتيح كل ذلك لنا أن نكيل بمكيالين - إذا نحن شئنا ذلك - فإذا كنا آخذين كِلنا بمكيال، وإذا كنا معطين، فللعطاء مكيال آخر.

هذا التنوع في استخدام المكاييل والمعايير تساعد عليه ظروف متعددة نود أن نسلط الضوء على ثلاثة نماذج منها:

أ- تحسس الناس من النقد، حيث صار الانتقاد - في حس الكثيرين - لفكرة من الأفكار تجريحاً شخصياً لصاحب الفكرة وهذا خطأ كبير نرتكبه في جانب الحقيقة، ونتيجة للربط في أذهان الكثيرين بين القضايا العلمية والشخصية صارت أضواء النقد لدينا توجَّه باستمرار نحو الخارج، فالشعوب لا تتحدث عن مثالبها، ولكن عن مثالب الآخرين، والآخرون يقابلون ذلك بنظيره، وهذا هو الكيل بمكيالين حقاً، فمعايير النقد تطبق على الآخرين أما نحن ففوق النقد.

ب- عدم وضوح الحدود الفاصلة بين الإيجابيات والسلبيات في كثير من الأحيان يتيح للمطففين أن يكيلوا كيف شاؤوا، ذلك لأن الفارق

بين الشجاعة والتهوّر قد لا يكون شديد الوضوح، وهو لذلك قد يكون موضع نزاع بحسب خلفية المقوم، والزاوية التي ينظر منها.

ج- من الكيل بمكيالين ما يمكن أن نسميه بـ (فن التبرير)، هذا الفن الذي تتقنه الأمم العاجزة المهزومة إتقاناً عجيباً، فكل انتكاساتنا الحضارية لها ما يسوّغها، فقد كانت التحديات فوق الطاقة، أو كان التآمر فوق الوسع، وكل أخطائنا القاتلة التي استمرت قروناً دون إصلاح كانت عن اجتهاد، فنحن أبداً بين الأجر والأجرين!.

١٠- الخضوع لسلطة الجماهير

إن أكبر مشكلة يواجهها قادة الرأي والفكر في تعاملهم مع الجماهير هي أن الفواصل التي تفصل بينهم متدرجة فهناك العامة السذج، وهناك العامة المتنورون، وهناك أنصاف المثقفين، وهناك المثقفون المتخصصون تخصصاً مغلقاً، وهناك الصفوة الطامحة إلى تأييد الجماهير في انتخابات أو غيرها، وهناك الجماهير الممولة لمؤسسات يشرف عليها المثقفون.. هذا التنوع يجعل الصفوة المالكين للقدرة على التفكير السليم واقعين تحت تأثير الجماهير بصورة من الصور مهما حاولوا الفكاك من ذلك!..

من صور الخضوع للجماهير ما نراه اليوم عند من يخطب مرتجلاً حيث يسمع تكبير المستمعين أو تصفيقهم، فيبدأ بترديد ما أثار إعجابهم إرضاءً لهم وانتزاعاً لمزيد إعجابهم، مع أن ذلك قد يكون غير ذي شأن في حسه وفكره، فقد صار بعض الخطباء أشبه بالمطربين.

١١- سوء التعامل مع الألفاظ

إن الكثير من الملابسات تجعل إمكانات التلاعب بالألفاظ، واتخاذها وسيلة للتضليل بدل أن تكون وسيلة للإبانة والتوضيح واسعة جداً، وأدى ذلك إلى نزاعات وخصومات كثيرة؛ بل ربما قامت فرق ومذاهب تنحو نحواً خاصاً في فهم النصوص، وتحمل الألفاظ من المعانى ما تأباه طاقاتها المعترف بها عند جماهير اللاغين بها!!. ولذا فإن اللغة تعد مرتعاً خصباً للخروج عن الموضوعية من خلال تحريف الدلالة، أو تجاهل ظروف النص التي قيل فيها، وغير ذلك.

واليوم نعاني مشكلات كثيرة من وراء عدم الاستخدام الصحيح للغة، ومن وراء الفهم المبتسر المتعجل لكلام الآخرين فما هي التدابير التي تمكّننا من التخفيف من غلواء هذه الظاهرة يا ترى؟

- لا بدّ من القناعة بما يؤدي إلى الفهم العام مع الحرص على الدقة بقدر الإمكان.
- إن من الموضوعية أن نحدث نوعاً من الانسجام والتناغم بين الألفاظ التي نستخدمها، وبين الموضوع الذي نتحدث عنه.
- ألا نحدّث الناس عن قضايا لا يملكون أية خلفية عنها.

- أن نستخدم الألفاظ المحددة التي لا تحتمل إلا معنى واحداً إذا كنا نتحدث عن قضايا علمية، أو عقدية أو فقهية، وإذا ما كنا نتحدث في مجالات حضارية أو أدبية فإن المطلوب حينئذ هو عبارات، وأساليب موحية، لا تسجن المعنى، ولا تكون تقريرية مباشرة.

هذا بعض ما يجب علينا إذا كنا متحدثين أو كاتبين، فإذا كنا مستمعين أوقارئين فإن من واجباتنا الموضوعية - في تصوري - ما يلي:

أ- الإحاطة الحسنة بالخلفيّة الثقافية والتاريخية لبيئة الفكرة مهمة لاستيعاب الفكرة، وفهمها على الوجه الصحيح، ومن غير الموضوعية أن نسارع إلى تحليل النصوص والأفكار قبل أن نتيقّن أننا قبضنا على أدوات فهمها بشكل كاف.

ب- من غير الموضوعية أن نقبس نصاً واحداً في قضية فيها نصوص كثيرة، أو أن نأخذ قولاً واحداً من أقوال واحد من العلماء، ثم نقيم له محاكمة بناء عليه دون النظر إلى الأقوال الأخرى الواردة عنه.

١٢- اضطراب ردود الأفعال

إن ظاهرة ردود الأفعال هي ظاهرة صحيّة، حيث يتم من خلال الفعل ورد الفعل حفظ التوازن العام لحياتنا العقلية والنفسية والاجتماعية؛ وإن عدم وجودها قد يعني انهياراً كاملاً لأشياء كثيرة.

كيف تحدث «اللاموضوعية في ردود الأفعال؟

إن هناك مساحات ثابتة في عالم العقائد والأفكار والأعراف انقطع حولها الجدل منذ زمن بعيد عن أهلها – سواء أكان ذلك موضوعياً أم خاطئاً – وهناك إلى جانبها مساحات أخرى ثابتة كذلك؛ ولكن تخالفها مخالفة تامة في الاتجاه والركائز، وبين هذه وتلك مناطق فراغ أو مياه دولية محايدة يحقّ للمرء أن يتحرك فيها بحرية شبه مطلقة دون أن يثير حفيظة أحد وحين يتعدى (الحدث) القولي أو الفعلي تلك المنطقة إلى الجهة المقابلة المضادة فإن ذلك سيعني إفسادها بسبب دخول عنصر مضاد لطبيعتها، ويكون الرد غالباً ليس الوقوف عند حدود المنطقة المملوكة، وإنما الاندفاع إلى الجهة المقابلة تماماً لاختراقها على مبدأ الهجوم خير وسيلة للدفاع.

إننا حين نكفّ عن الفعل فسنقع ضحيةً لردود الفعل، وحين لا نقرأ محيط الفكرة وخلفيتها فإننا قد نساق خلف تطرفها دون أن ندري!

إن الناموس لردود الأفعال هو عدم الاتزان، وعدم الموضوعية، وإن الكسالى والعاجزين والفوضويين سيظلون باستمرار على هامش الفعل، وفي بؤرة ردود الفعل تتقاذفهم أمواجه العاتية!

الفصل السادس

في كيفية بناء التفكير الموضوعي

كيف نبني الموضوعية ؟

١ الشعور بعدم بلوغ الكمال في الموضوعية

٢ التعمق في الدراسات الاجتماعية

٣ الانفتاح

٤ لا موضوعية بدون تضحية

٥ عدم الخضوع لسلطان الشائعات

إن من أهم ما يساعدنا في بناء تفكير موضوعي:

١- إن بداية الرقي في سلم الكمال لا تكون إلا من خلال الشعور بأننا لسنا في آخر مراقيه، فالذين يشعرون أنهم موضوعيون لا يمكنهم أن لا يستفيدوا شيئاً من جميع ما قلناه، وأنهم ليسوا بحاجة إلى شيء منه! إن علينا أن ندرك أن الموضوعية ليست درساً نحفظه، ولا هي شعارات، نرددها هنا وهناك.

٢- لا بد لنا من التعمق في الدراسات التاريخية والنفسية والاجتماعية حيث تكشف لنا الدراسات التاريخية عن سنن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في قيام الحضارات والدول وأقولها، وتلك السنن ثابتة ثبات القوانين الفلكية والفيزيائية، أما الدراسات النفسية فإنها ضرورية لمعرفة الظروف الشخصية لأصحاب الأفكار من حيث المكوّنات العامّة والدوافع وردود الأفعال والأمزجة الخاصة، ولكل ذلك آثاره الحادة في الموضوعية والتحيز، والدراسات الاجتماعية تطلعنا على السنن التي تحكم اجتماع الإنسان مع الإنسان، وما يحكم الظواهر الاجتماعية في نشأتها وتطورها، ومعرفتها تجنبنا ألواناً كثيرة من الاعتساف الذي نقع فيه من جراء تعاملنا مع تلك الظواهر، وتجعل أحكامنا أقرب إلى المنطق والواقع.

٣- الانفتاح عامل أساسي في تكوين العقل الموضوعي، حيث إن الوعي بالحجم الحقيقي لقضية ما يتوقف في كثير من الأحيان على المقارنة والموازنة بينها وبين غيرها، ليتّخذ بشأنها القرار المناسب.

٤- لا موضوعية بدون تضحية؛ إنّ على الذي يريد أن يكون موضوعياً أن يضحي بأشياء كثيرة.

٥- إذا كان الانغلاق يعني (اللاموضوعية) فإن الحوار يعني الانفتاح الواعي على الآخرين، والحوار ظاهرة اجتماعية؛ إذ هو من أفعال المشاركة التي لا يمكن للفرد أن يقوم بها وحده؛ ولكن الخوف والشك يدفعان المرء في كثير من الأحيان إلى النأي عن هذه الظاهرة.

ويعود ضعف الحوار عندنا إلى مشكلتين:

الأولى الاستخفاف بفائدة الحوار، **والثانية** الخوف من الحوار. أما الذين لا يدركون قيمة الحوار فهم كثر، وينطلقون من منطلقات مختلفة منها اعتقادهم أن الخلاف الذي بينهم وبين الآخرين لا يمكن أن يزول بالحوار؛ لأنه خلاف متجذّر، أو هو في الأصول. ومنها أن الحوار مضيعة للوقت، وأن المطلوب العمل، وليس اجترار الأفكار.

وفي هذه المنطلقات غفلة عن حقيقتين هامّتين:

الأولى: أن المطلوب من الحوار لا يشترط أن يكون توحيد الرأي دائماً، وإنما المطلوب هو شرح وجهة نظر الأطراف المختلفة لبعضها بعضاً.

الحقيقة الثاني: أن العمل الذي لا تسبقه رؤية ناضجة معرّض للانحراف كما أنه معرض للإصابة بأزمات واختناقات لا يخفف من غلوائها إلا الفكر النيّر القادر على إيجاد بدائل وتوافيق جديدة، وهذا يسهم فيه الحوار بنصيب كبير.

أما الذين يخافون من الحوار فإنهم أيضاً غير موضوعيين، والأسباب التي دفعتهم إلى الاحجام هي التي كان ينبغي أن تدفعهم إلى الحوار، ذلك أن الذي لا يثق بما يحمل من أفكار ومنطلقات هو وحده الذي يخاف من محاورة الآخرين فما منا إلا ويرغب في نشر أفكاره وتعميمها.

وقد يكون دافع الخوف عدم وجود الأدلة على تلك الأفكار؛ لأن صاحبها أخذها بالوراثة والتقليد. وقد يكون الدافع إلى الخوف خشية التغيير.

٦- هناك سلطان اسمه سلطان القدم؛ حيث يميل أكثر الناس إلى منح كل قديم مكانةً خاصة، كما أنهم ينظرون إلى الأفكار الجديدة كما ينظرون إلى الفتى الحدث الذي لم يبلغ مرحلة النضج! وهذه نظرة غير موضوعية، وإذا علمنا أن كل قديم كان في يوم من الأيام حديثاً، وأن كل حديث سيصبح يوماً ما قديماً علمنا أن الرشد هو استخدام الحق والعدل مع كل منهما تبعاً لما يقضي به المنهج الذي أكرمنا الله به.

هذه بعض الأفكار التي تساعدنا على تنشيط حركة الفكر لدينا، وتجعل تفكيرنا أقرب إلى الموضوعية، كما تساعدنا على إيجاد مركب نفسي وعقلي يرى الأمور على ما هي عليه، ويتعامل معها كذلك.

فهرس العناوين

مركز غراس للإنتاج الفكري ٣

الفصل الأول

لِمَاذَا كَانَ التَّفْكِيرُ ضَرُورَةً حَيَوية؟ ٧

لماذا نفكر؟ ١٢

كيف نحسن التفكير؟ ١٣

التفكير العِلْمِيُّ ١٧

التفكيرُ المَوضُوعِيُّ ١٩

الفصل الثاني

القرآن الكريم يبني الخَلفِيَّة التاريخية لِلمَوضُوعِيةِ ٢١

الفصل الثالث

بناء المجالِ النَّظَرِي لِلمُوضُوعِيَّةِ ٢٩

الفصل الرابع

في تجلِّيات المَوْضُوعَيةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ معالم وإجراءات ٣٩

١- الموضوعية ومناهج البحث العلمي ٤٠

٢- موضوعية علماء المسلمين تجاه تقويم الأشخاص ٤٤
٣- موضوعيتهم حيال الأفكار والأحداث ٤٧
٤- التعامل مع الحقيقة: ٥١

الفصل الخامس

صور ومواقف تنافي الموضوعية: ٥٩
١- التعصب ٦٠
٢- المبالغة ٦٤
٣- عقلية البعد الواحد ٦٦
٤- التفسير التآمري للتاريخ ٧٢
٥- لكل قاعدة شواذ ٧٤
٦- إسقاط القاعدة بالمثال الشّاذ ٧٥
٧- تقديس الفرد ٧٦
٨- الخلل في علاقة المتقابلات ٧٨
٩- الكيل بمكيالين ٨٢
١٠- الخضوع لسلطة الجماهير ٨٤
١١- سوء التعامل مع الألفاظ ٨٥
١٢- اضطراب ردود الأفعال ٨٧

الفصل السادس

في كيفية بناء التفكير الموضوعي ٩٠

غراس

للإنتاج الفكري

GHIRASCENTER.ORG